المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

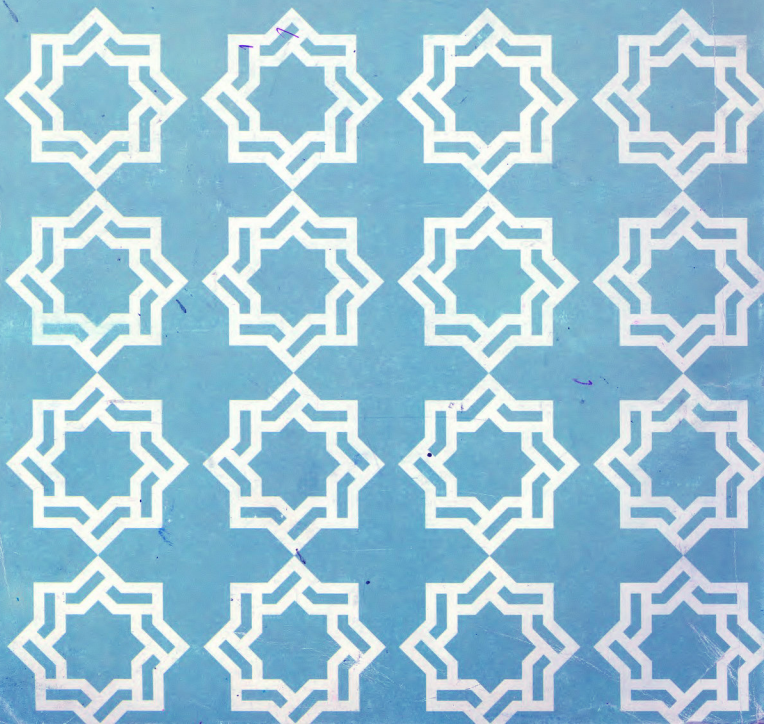

ابراهيم صالح شكر

حياته ـ مختارات من آثاره

بقلم

حارث طه الراوي

مدير في تحرير « المورد »
وزارة الاعلام ـ بغداد

في اليوم الثامن من ذي القعدة سنة ١٣١٠ هـ ـ ١٨٩٠ م(١) ولد ابراهيم صالح شكر في بغداد ، ونشأ نشاة دينية في مساجدها حيث اتيح له ان يلم بمبادىء الشريعة الاسلامية الغراء .

واستهوته امهات كتب الادب العربي المعاصر في الوطن العربي والمهاجر وخلبت لبه اساليب المجددين من كتابنا المعاصرين ولا سيما ادباء المهاجر حيث ظهرت محاكاته لاسلوب وافكار جبران خليل جبران في مجلة « الرياحين » التي اصدرها ابراهيم منيب الباجه‌جي في ٢٥ نيسان ١٩١٣ .

وفي سنة ١٩١٥ داهم « الطاعون » الرهيب منزل آل ابراهيم فقضى بقسوة بالغة على والديه ، تاركا اديبنا اليافع وشقيقته اليافعة على قيد الحياة ليتحملا اعباء اليتم الفاجع منذ نعومة الاظفار ..

فلا عجب اذا ما احس ابراهيم بالالام المبرحة تمزق نفسه الحساسة وتستثير اعصابه المرهفة المتوترة . وقد وصف عذابه هذا في مقالات متسلسلة نشرها فيما بعد في جريدة «الزمان»(٢) .

* * *

كان ابراهيم ممتزا بعروبته(٣) ، منافحا عنها فلا عجب اذا ما صمم القائد التركي « نور الدين » على نفيه ، مع زمرة من شبيبة العرب الاحرار الى الموصل الحدباء ، ليذيقه عذاب النفي بعد ان اذاقه الطاعون عذاب فراق والديه ، ولم يكن بين نكبته بفقد الوالدين ومحنته بالنفي سوى ثلاثة اشهر .

وفي مكتبة صغيرة متواضعة في الحدباء تعرف عليه الشاب اليافع « رفائيل بطي » الذي اصبح ، فيما بعد اديبا وصحافيا شهيرا ، وغدا رفيق ابراهيم صالح شكر في جهاده الصحفي .

كان ابراهيم ، يومئذ ، يرتدي الجبة والعمامة ، واستمر على ارتداء هذا الزي الديني ، ولم يستبدله بالزي الافرنجي الا بعد ثورة العشرين المجيدة ، ولكنه لم يسرع الى استبدال الطربوش بالسيدارة كما فعل الكثيرون من العراقيين ، ولعله اراد ان يتحدى المستبشرين بالحكم (الوطني) العراقي الذي كان محاطا بحراب الانتداب البريطاني !..

* * *

في كانون الاول ١٩٢١ اصدر ابراهيم مجلة « الناشئة » شهرية ادبية فاحتجبت بعد عددها الثالث. ثم اصدر « الناشئة الجديدة » بحجم كبير في ٢٧ كانون الاول ١٩٢٢ « فتعرضت للتعطيل الاداري في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٣ ، ثم عطلها هو نفسه في ١٥ حزيران ١٩٢٣ بسبب الاعتداء الذي وقع عليه بتحريض

---

(١) ذكر في دفتر الخدمة العائد له (بخط يده) أنه ولد سنة ١٨٩٦ .

(٢) من صحف الدفتر الاسود ـ مذكرات حتروش ـ العدد ١٩/٤٣ ايلول ١٩٢٨ .

(٣) ذكر السيد الحميد الكنين في مقاله عن ابراهيم صالح شكر المنشور بملحق « المنار » البغدادية (العدد ١/ السنة ١ / ٣١ اذار ١٩٦٨ ص ٤٧) ما يلي :

« .. ولا بأس ان ادلك على ان الكاتب الفذ والاديب الموهوب هو عراقي المولد ، بغدادي النشأة ، عصامي المنبت ، فارسي الاصل ، وقد طغت عربيته أو عروبته او استعرابه على كل امشاج تتصل بالاروما . وغمرت فصاحة اللهجة المعروفة عن تلك السلالات التي انحدرت من قبيلة (اللر) وانحدرت من اعالي جبال (بشتكوه) الى العراق واكتسب ـ بحكم الوراثة ـ الجراة النادرة من اولئك الفرسان الغزاة الذين عرفناهم من اساطير المتقدمين ومتوارثي الاساطير تحت ظلال الجيرة وبتبادل الزيارات ... » .

وقد رد عليه السيد خزعل صالح شكر قريب المرحوم ابراهيم في ملحق « المنار » السنة ١/ العدد ٢/ ٦ نيسان ١٩٦٨ ص ٤٨ ومما جاء في رده :

« ... أن عائلة صالح شكر عربية الاروما من عشيرة الكروية وتنتمي هذه العشيرة الى القيسيين ومن الصياحة وهم الكروية القديم ، حيث يقسم الكروية الى كروية جديد وكروية قديم ، بل وانها من شيوخ الكروية سابقا . وان ابناء عمومتنا يقطنون نهر مهروت في المقدادية من مئات السنين ، ونحن كذلك ، حتى انتقلت العائلة الى محلة باب الشيخ نهائيا وسكنت في دار احد أبناء العمومة المرحوم عبدالقادر الخطيب في محلة (قهوة شكر) ... الخ ... » .

بعض الساسة ، اذ ضربه شخصان من (الاشقياء) في الشارع العام وفي وضح النهار ، ونتفا لحيته وكادا يقتلانه ! فنشر بيانا عنيفا (الى انظار الشعب والحكومة) أعلن فيه عزمه على تأجيل اصدار المجلة »(٤) .

واضطرته ظروف الحياة الى الانخراط في سلك الوظيفة حيث أسندت اليه وظيفة متواضعة في وزارة الداخلية ... وهكذا فرضت الظروف على هذا الطائر الطليق ان يقبع في هذا القفص الصغير ، ثم قدم استقالته(٥) .

والتفتت جريدة ـ الفضيلة ـ لصاحبها السيد عبدالرزاق الحسني الى الضيق النفسي الذي كان يعانيه ابراهيم المحروم من جريدة ينفس بها عن لواعجه ويروي بها غليله الادبي في الفترة التي كانت فيها الصحف مباحة للامميين والنفعيين الحاكمين على فتات موائد الحاكمين والحاكمين بأمرهم ، فنشر صاحب « الفضيلة » كلمة بهذا المعنى في جريدته ، أثارت أشجان ابراهيم وحدت به الى توجيه الرسالة(٦) الادبية التاريخية التالية الى السيد الحسني :

« حضرة الفاضل السيد عبدالرزاق افندي الحسني

بعد الاحترام : لقد اطلعني « بريد اليوم» على المقالة الاولى في العدد «٦٨» من جريدتك الغراء وما اشتملت عليه من التعرض لمن آثر الانزواء عن الناس ، وفضل الابتعاد عن هذه الفوضى الفاشية في وادي الرافدين بارك الله في خيراته !!

والذي التمسه اليك هو ان تثق بأني لست « شهيدا » ، ولست « مشهودا » ، وانما انا رجل فاضت نفسه بالنقمة على « دعاة السوء » فاعمل مهمازه في شواكلهم فتهيبه الرعاديد ذوو « الماضي الاسود » و « الحاضر المخجل » و « المستقبل الشنيع » .

وما زهدت في « مهنة القلم » في هذا الوطن المبارك لانها مهنة كاسدة ، وانما لانها عرضة للاهواء التي يثيرها « عبيد القوة » و « خدمة » « الاشخاص » . ولان الحرية فيه مباحة في « حانات الخمور » و « . . . . . » فقط .

اما حياة التوظيف « فهي بالرغم من خمولها ، وبالرغم من قيودها ورسمياتها » اقل عناء للنفس من مجاراة اشخاص « الزمن الاخير » اولئك الذين استثمروا غفلة السذج فنعموا منها بالحياة الرغدة الهنيئة .

وخير « للادب في العراق » ، أن يموت ويموت ذكره من أن يكون « كرة حقيرة » تتقاذفها الارجل التي لا تقوى على الوقوف بدون عكازة . فان ادبا هذه مكانته بين الناس لخير منه «المولود» الذي يجب خنقه ، لان في حياته « عار وفضية » .

لهذا ارجو اليك أن تشفق على أولئك الذين نفضوا أيديهم من جراثيم هذه « الحرفة الموبوءة » ورضوا بهذه العزلة القاحلة ، فخمول الذكر في هذه البلاد سلامة ، وهم مغتبطون بها . على أن تتقبل في الختام وافر الاحترام .

المخلص

« ابراهيم صالح شكر »

* * *

وقد اثارت هذه الرسالة الثائرة الساخرة همة السيد عبدالرزاق الحسني فنشر في الصفحة الاولى من جريدته « الفضيلة »(٧) مقالا طويلا تحت عنوان «الادب في العراق ايضا» اقتطف منه السطور التالية :

« نشرنا في العدد الماضي من جريدتنا « الفضيلة » نفثة الصحفي النقادة الاديب ابراهيم صالح شكر ، ولم تكن تلك الكلمة التي تفضل بها جنابه سوى نفثة مصدور وحرقة مالوم وزفرة مكلوم .

على انه وان كان يتظاهر للقارىء خلال سطورها اثر التجلد ، ولكن الناظر اليها نظرة لبيب مفكر يرى دمعة مسفوكة انتشرت على القرطاس تبكي الادب ، وصرخة خارجة من اعماق القلب هي اشبه بالنعي ترثي الصحافة رثاء من فجع باهله وبصميمه .

اجل ! حق لابراهيم ان يبكي الادب في العراق وان يتوجع له ، وهو اول من خاض غمار الصحافة في بغداد واصدر جريدة « الرياحين » الادبية ، يوم لم تكن هذه الحشرات التي تدب على الارض اليوم مخلوقة ، ويوم لم تكن هذه الذئاب العاوية موجودة في اديم العراق .. الخ .. » .

انها كلمة رائعة من الحسني لانها كلمة حق اريد بها الحق والانصاف .

* * *

ويعود الفارس الى ميدانه سنة ١٩٢٧ عندما اباحته له السلطة اصدار جريدة باسم « الزمان » التي صدر العدد الاول منها في ١١ تموز ١٩٢٧ متوجا بافتتاحية ممعنة في السخرية . ومما ورد فيها قوله :

« تصدر هذه الجريدة وليست وجهتها خدمة « الوطن » أو « الامة » أو « القضية » أو « الاستقلال » او « العلم » او « الفن » وانما وجهتها « خدمتي انا » .

فهي تنطق بلساني ، وتعبر عن شعوري ، وتكتب بقلمي ، وتطبع بدراهمي ، وتنشر في « وطني » وليس للجمهور ان يتوخى فيها شيئا تأنس به نفسه ، او تتلذذ به روحه ، فاني مسا أصدرتها لارضي الناس ، وما نشرتها ليقبل عليها الجمهور ، وانما نشرتها لاتلذذ بها في عهد الفترة ، ولاتسلى بعبثها في عهد « التصنع » « العقلي » فهي « مني والي » .

ولما كنت لا اعرف البخل فيما اكتب ، وفيما املك ، فاني أبيح للناس « لذة القراءة » اذا حاولوها في هذه الجريدة .

ولما كنت « اشتراكيا » في عقيدتي الاجتماعية ، فاني ابيح للجمهور حق « الاشتراك » فيما اكتبه لنفسي ، وفيما املكه من هذه الجريدة .

ومما قاله ابراهيم في هذه المقالة الساخرة :

« انني من « حملة المعاول » وسوف اجعل من هذه الجريدة

---

(٤) خالد محسن أسماعيل ، قلم وزير ، مطبعة المعارف ١٩٧٠ ص ١٣ .

(٥) « لم تقبل وزارة الداخلية أستقالة ابراهيم أفندي صالح شكر وفي نيتها أن تنقله الى وظيفة أخرى أو محل اخر »، جريدة ـ العالم العربي البغدادية ، العدد ١٦٩ ، ١٠ تشرين الاول ١٩٢٤ .

(٦) جريدة « الفضيلة » ، السنة ٢ ، العدد ٦٩ ، ١٢ كانون الاول ١٩٢٦ ص ٢ .

(٧) السنة الثانية ـ العدد ٧٠ ـ ١٩ كانون الاول ١٩٢٦ .

« معولا » أهدم به ، وبه أحطم ، لا لان الهدم والتحطيم مما تحتاجه البلاد او الامة،وانما لاني ولوع بالهدم شغف بالتحطيم».

فهل يفسر هذا القول الساخر بظاهر الالفاظ ، فيقال ان ابراهيم صالح شكر لم يكن يقصد من مقالاته السياسية والاجتماعية الا الهدم لغاية الهدم ، كما ذهب الى هذا الراي الغريب الاستاذ خيري العمري بمقاله « ابراهيم صالح شكر »(٨) حيث قال :

« .. واذا كان لا بد من تحديد طبيعة النقد الذي مارسه (ابراهيم صالح شكر) في كتاباته فليس من ريب ان الطابع الذي يغلب عليه هو طابع الهدم ، فليس وراء نقده فكرة يهدف اليها او هدف يتطلع اليه او بناء يسعى الى انشاءه على حطام تلك الانقاض التي اقامها معوله . واذا كانت بعض تلك النقدات قد صدرت عن ايمان صحيح وصدق في العاطفة ودوافع نبيلة فليس من شك في ان بعضها الاخر لم يخل من دوافع شخصية ونزوات عابرة تحكمت في الرجل فدفعته الى كتابتها ، وكان بطبيعته يتحمس بالعبارة ويهتز بالكلمة . وقد اكد ابراهيم صالح شكر نفسه هذا المعنى فقال في العدد الاول من جريدة « الزمان » : انني من حملة المعاول وسوف اجعل من هذه الجريدة معولا اهدم به واحطم لا لان الهدم والتحطيم مما تحتاج البلاد او الامة ، وانما لاني ولوع بالهدم شغف بالتحطيم » .

ولا ادري لماذا تجاهل العمري قول اديبنا الثائر في نفس هذا المقال :

« .. والقلم الذي اكتب به هذه الجريدة ، انما اغمسه في قلب نابض بالحياة الحقة ، فاسطر عقيدة متغلغلة في اعماق نفس خلقها الله لتفيض بالنقمة على الباطل ، فهو قلم لا صلة له بالاقلام الهزيلة التي يقطر السواد من شقوقها فيلطخ صحفا وجدت للتفشية على الابصار ، والزج بالغفل في مهاوي السقوط . ان تلك الصحف لها تلك الاقلام ، وان هذه الصحيفة لها هذا القلم ، وما ينشر في تلك الصحف فانما هو (لوجه الله والوطن) اما ما ينشر في هذه الصحيفة فهو (مني والي) ومن الله التوفيق والى الله المصير » .

فاذا جارينا العمري في تعليله جردنا ابراهيم صالح شكر من رسالته كاديب ملتهب الاعصاب ، يتطلع بعشرات العيون ـ لا بعينيه النفاذتين وحسب ـ الى افاعي المساوىء التي كانت تدب بين ادغال المجتمع العراقي خلال العشرينات والثلاثينات .. اذ لا يعقل انه كان يتصدى لتلك الزواحف الشريرة لمجرد التسلية والعبث !

* * *

وهناك راي اخر بهذا الشان لا يمكن التسليم به ايضا ، صادر عن رفيق جهاده السياسي والادبي المرحوم الاستاذ رفائيل بطي حيث(٩) قال عنه :

« .. والانصاف التاريخي يدعونا الى الجهر بان كثيرا من الاوصاف والاتجاهات التي تصورها مقالات صالح شكر لمعظم هؤلاء الاشخاص انما كانت تجيئه في ساعات استغراق التودد والاكرام واستثارة النخوة وبين اقداح « الويسكي » وانس المجالس من الساسة المرتوقين في الدولة الجديدة التي تشاد في ظل الانتداب البريطاني » .

فاذا كانت مجالس الانس واقداح (الويسكي) تثير في الاديب الحر الانبساط والاريحية الى الدرجة التي يجسم فيها بقلمه حسنات القريبين الى نفسه ومثله العليا ، فكيف تصدع هذه المجالس عقيدته وتفتت اراءه المتبلورة ، اللهم الا اذا كان الاديب نفعيا ومتزجرجا لا يستقر على راي . وحاشا ابراهيم ان يكون كذلك ...

ولا ندري كيف نسي المرحوم رفائيل ما قاله في جريدته « البلاد »(١٠) عن زميله ابراهيم . فقد قال ما يناقض رأيه الانف الذكر تماما وما يؤيد الراي الصحيح في عقيدة ابراهيم . فمما قاله :

« .. هكذا اتم (ابراهيم) آياته الفنية في تصوير شخوص السياسة العراقية والدولة في فجر حياتها فاخرجها روائع بقلم نابغ هي فضلة قريحته المشبوبة وثمرة احساسه الوطني ، ولم يكن فيها رحمه الله لا اجيرا ولا عدوا ، وسيعرف التاريخ اليوم وغدا ان تلك الخواطر والصور انما هي فلذة من كبد صاحبها ونسيج من اعصابه واحاسيسه ، ينمقها ضياء من ضميره الصافي .. » .

* * *

ولنعد بعد هذا الاستطراد الذي لا بد منه الى جريدة ابراهيم « الزمان » لنجدها معطلة سنة ١٩٢٨ من قبل الوزارة السعدونية التي ضاقت ذرعا بانتقادات ابراهيم صالح شكر اللاذعة . وقد عز على محرر جريدة « نداء الشعب »(١١) ان يبقى ابراهيم طوال أشهر عديدة بلا جريدة ، فنشر تحت عنوان: « جريدة الزمان بعد عام من تعطيلها » مايلي :

« علمنا ان الاستاذ ابراهيم افندي صالح شكر قدم امس تحريرا رسميا الى فخامة رئيس الوزراء يطلب فيه الافراج عن « الزمان » المعطلة لما كانت حكومة السعدون السابقة قد عطلت جريدة الزمان في ٢٦ ايلول من العام الماضي ، وفات على رصيفتنا عام كامل تطورت فيه الاحوال السياسية ، والادارية تطورات مهمة ، فقد سقطت وزارتان وتالفت وزارتان خلال هذه الايام ، ولكن الرصيفة « الزمان » الغراء لا تزال معطلة بقرار مجلس الوزراء ويكون من الفضاضة أن تحرم البلاد من جريدة وطنية لها مكانتها ومنزلتها عند الشعب ، ويكون من الواجب على الحكومة السعدونية الجديدة الافراج عن الزمان في هذا الظرف ، والبلاد اليوم تجتاز دورا من ادوارها المهمة ، في حاجة الى اقلامها الجريئة وصحفها الوطنية ، وما نخال الحكومة الا نازلة عند اجابة هذا الطلب الذي ترتاح اليه النفوس وأملنا ان الحكومة تلبي هذه النزعة وتفرج عن الرصيفة في هذا القريب وبذلك تحسن صنعا » .

* * *

شعر ابراهيم ، بعد ان سلبت منه رئته « الزمان » بالاختناق . فاثر الهجرة الى الاقطار العربية المجاورة لعله يستطيع ، هناك ، ان يتنفس برئة جريدة جديدة . ولم يكد يودع العراق حتى شرع بالتنقل بين دمشق وبيروت وعمان والقدس والقاهرة ، واتصل بمختلف الشخصيات العربية السياسية والادبية .

---

(٨) مجلة « الاقلام » ـ السنة ١ ـ تشرين الاول ٦٤ ص ٤٦ .

(٩) مجلة « الاسبوع » البغدادية ـ السنة ١ ـ العدد ٢٠ ـ ١٥ مايس ١٩٥٣ ص ٤ .

(١٠) العدد ٢٢٢٦ ـ ١٧ أيار ١٩٤٤ ص ١ والتتمة ص ٤

(١١) السنة الثانية ـ العدد ٤٤٨ ـ ٢٧ أيلول ١٩٢٩ ص ٢ .

أما الجريدة ، حلمه الذهبي ، فتحدثنا عنها رسالته المؤرخة ١٧ كانون الاول ١٩٢٨ التي ارسلها من خارج العراق الى صديقه « خليل أفندي » :

« ... في بداية العام الميلادي الجديد تصدر « الفرات » حافلة بما يسرك ويسر الاصدقاء وان بعثت الحنق والغيض في صدور الاعداء الاثمين ، فهي سوف لا تغادر صغيرة او كبيرة الا احصتها ، وأشارت اليها ، وكذلك ينفجر البركان بعد الضغط وكذلك يصول الكريم اذا اضطهد ، وكذلك يكون تاديب الذين لا يخافون الله في الامة والبلاد .

مقدمة « الفرات » هذا عنوانها : الفرات صحيفة الثورة العراقية صدرت في النجف عام ١٩٢٠ وتستانف صدورها في دمشق عام ١٩٢٩ والاحتلال الانكليزي مازال في العراق المستقل..

المقالة الثانية هذا عنوانها : الانكليز في جزيرة العرب ، قضية المخافر بين نجد والعراق ، المستر كلوب واساليبه في الاستعمار .

عنوان المقالة الثالثة هكذا : الحالة السياسية في العراقية موقف الوزارة السعدونية ، توقف المفاوضات بين بريطانية والعراق .

المقالة الرابعة هذا عنوانها : مهازل الاستقلال الكاذب والاعيب الاستعمار .

٥ ـ المعلوم والمجهول ، فيه كلمة صغيرة عن كل وزير من اعضاء الوزارة الحاضرة .
٦ ـ رؤوس حراب : فيه عشر نبذ ، وهي بدل رؤس اقلام .
٧ ـ على المكشوف ، من صحف الدفتر الاسود ، بقية مقالة : حتروش .
٨ ـ مصر في عهد الدكتار المزيف .
٩ ـ امتصرفية ام امارة ، هي كلمة عن الحالة في شرقي الاردن .
١٠ـ الصهيونية في فلسطين .
١١ـ خلاصة اخبار البلاد العربية .
١٢ـ قصيدة عصماء للاستاذ خير الدين الزركلي يرثي فيه(١٢) العروبة التي خنقتها احقاد ملوك العرب وامراء الجزيرة .

هذا هيكل العدد الاول من « الفرات » وهذه عناوين مقالاته ، واذا طالعته سرك جدا ، فاني احاول ان اجعل منه نموذجا للصحافة في دمشق ، واريد ان اعلم الحكومة العراقية باني لم اكن معها صريحا في « الزمان » والصراحة انما هي في « الفرات » فقط . » .

ولكن ، وا اسفاه ، لم تصدر « الفرات » ولم يتحقق حلم ابراهيم الذهبي لاسباب لم اقف عليها بعد .

ويعرض ابراهيم في « دمشق » وتشتد عليه وطأة المرض فيقول لعواده :

« احملوا الي حفنة من تراب العراق اشرب عليها كأس حمامي » .

ثم يمن الله عليه بالشفاء وينعم بوفاء اخوان اعزاء يعرفون منزلته ويكبرونها من امثال (معروف الارناؤوط) و (امين نخلة) و (صهيب العطار) . حيث اقام له «الارناؤوط» حفلة تكريمية حياه فيها واكبره وقارن بينه وبين المرحوم « امين الرافعي » لسان الوطنية العربية في مصر .

وعندما ازمع العودة الى بغداد اقام له صهيب العطار حفلة وداعية القى فيها صديقه الشاعر « امين نخلة » القصيدة الوجدانية المؤثرة التالية التي عبرت بصدق وروعة عن حالة ابراهيم ، الشريد الحر وعن لوعة الفراق التي الهبت قلب امين ، صديقه الحميم :

لا تودع اذا نويت فقلبي
حسبه منك لوعة التفريق
ان من بغتة الوداع على القلب
وهول الوداع غير الخفوق
ياشريدا انسى الشريد أذى الدهـ
ـر وايام جفوة وعقوق
بالولاء المخضر والخلق السكب
وظرف كنهلة من رحيق
جس صدري بكفك اليوم واسمع
ضجة القلب والوداد العميق
كان همي وهمك اليوم صنوب
ن ، وكنا للمجد نضوي طريق
سوف يدري الزمان ان سكوتي
في ضجيج الصروف غصة ريق

ويقف ابراهيم صالح شكر ليشكر الادباء والشعراء على حفاوتهم الاخوية به ، فيرتفع الى اوج الحس القومي بقوله :

« ... ارث الامة من تاريخها وماضيها ارث الاباء والامهات للابناء والبنات ، ويشاء هذا الايمان الملتمع الا ان يكون قويا وان يكون عظيما ، ولن تطاوله المؤثرات مهما اشتدت في طغيانها وفي شدتها . وهكذا نحن ورثة الماضي المجيد تستحثنا الوطنية الصادقة الى العودة لماضينا الغابر ، نساير ظروفه ونستلهم عواطفه ، فنعود عربا لا سوريين ولا عراقيين ولا لبنانيين ... ».

* * *

عاد ابراهيم الى العراق في شباط ١٩٢٩ . واشترك مع صديقه الاستاذ عبدالرزاق شبيب في اصدار جريدة «الاماني» سنة ١٩٣١ . وقد استعانت المعارضة المتمثلة بحزبي «الاخاء» و « الوطني » بقلم ابراهيم الناري في مناهضة المعاهدة الجائرة التي ابرمها « نوري السعيد » مع الانكليز خلال وزارته الاولى .

واصطدم ابراهيم بمزاحم الباجه‌جي الوزير في وزارة نوري وهاجمه بمقال عنوانه « حفنة تراب على قبر مزاحم الباجه‌جي » فاحتد الباجه‌جي واقام الدعوى على ابراهيم صالح شكر رئيس تحرير « الاماني » وعبدالرزاق شبيب مديرها المسؤول امام حاكم جزاء بغداد شهاب الدين الكيلاني ، فانبرى (٣٥) محاميا للدفاع عنهما . وبعد المحاكمة اصدر حاكم الجزاء حكمه بالحبس الشديد لمدة سنة كاملة على ابراهيم صالح شكر وبالحبس لمدة ستة اشهر على عبدالرزاق شبيب لانهما « ارتكبا فعلا تنطبق عليه المادة ٢٥٣ بدلالة المادة ٢٥٢ » .

فانتقد المحامي الضليع الباسل علي محمود الشيخ علي سرية المحاكمة التي استندت الى المادة (١٩٦) من اصول المحاكمات الجزائية من دون ان توضح الاسباب التي اشار اليها القانون الاساسي في سرية المحاكمات « وفي الدعوى التي اقامها المشتكي لا يوجد شيء يتعلق مما يتعلق بالعرض او سلامة الدولة ، فاجراء المحاكمة سرية كان مخالفا للمقصد القانوني ».

وأوضح : « ان المادة ٢٥٢ قد عرفت القذف بانه اسناد فعل معين اذا صح يوجب اما عقاب المسند اليه او حطه في نظر ابناء وطنه . ويجوز اثبات الافعال المعينة المسندة الى الموظفين العموميين ، والمشتكي في الدعوى لم يستطع تعيين او حصر

---

(١٢) سهوا وبقصد « فيها » .

تلك الافعال وعجز عن تعريف القذف برغم انتمائه الى أسرة الحقوق . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان هذه الدعوى لا تحوي أفعالا معينة أسندت الى المشتكي وانما كل ما قيل عنه فهو عبارة عن سلوكه السياسي ليس غير .

نعم أن المشتكي أستطاع أن يعين أمرين معينين ، أولهما اسناد موكلنا له القذف بفخامة ياسين باشا الهاشمي بعد أن رجع من لندن مفصولا من مفوضيتها . وثانيهما توقيفه الابرياء أثناء اشغاله وزارة الداخلية . وفي كلتا الحالتين لا يوجد قذف ..

والمادة (٣٢) من قانون المطبوعات العثماني تصرح بانه اذا مرت ثلاثة شهور على النشريات لا يجوز اقامة الدعوى بسببها واعتبرت هذه المدة كمرور الزمن ، وان القانون الجديد المختص بالمطبوعات أقتفى أثر ذلك القانون من جهة عدم سماع الدعوى »(١٣) .

* * *

ونظرت المحكمة الكبرى في الاستئناف الذي رفعه المحامون وكلاء المتهمين فانزلت المدة المحكوم بها عليهما الى أربعة أشهر بالنسبة لابراهيم وشهرين بالنسبة الى عبدالرزاق شبيب فاودعا السجن الرهيب ...

وبعد خروج أبراهيم من السجن غمزته احدى الصحف البغدادية عندما رافق وفد حزبي « الاخاء » و « الوطني » الى كربلاء لعقد مؤتمر سياسي ، لكونه موظفا حكوميا ، فاهتز وثارت ثائرته وقدم الى الحكومة استقالته الشهيرة التي استهلها بقوله :

« لست أملك مالا ولست املك نشبا وقد ترك لي ابي .. الخ ... »(١٤) .

* * *

بعد ان ودع ابراهيم صالح شكر الوظيفة اكراما لابائه واستجابة لعزة نفسه ، رغم حاجته الماسة اليها نظرا لظروفه المالية السيئة ، عاد الى القلم في شهر تموز ١٩٣٢ ليسطر مطولته الشهيرة « تقي الدين » لجريدة « الاستقلال » التي مهدت لها بقولها :

« هذه صفحات ليست بالسياسية ولا بالتاريخية ولا بالادبية ولكنها تحوي كل الوان السياسة وعناصر التاريخ ، تزينها المسحة الادبية والاسلوب الرائع اللذين عرفهما القراء في الاستاذ الكبير ابراهيم صالح شكر .

وتقي الدين رجل تولى ولاية بغداد مرتين : الاولى كان فيها خلفا لمصطفى عاصم باشا . وله في هاتين المرتين مغامرات جمة في الحب والحياة والجمال والسياسة ، نشرها تباعا في هذه الجريدة بقلم الاستاذ المملوء حياة وحيوية .

ويقال ان ابراهيم كان يعرض بدسائسه « تقي الدين » باحد الساسة ، واهله « نوري السعيد » . فلم يكد ينشر الحلقة السادسة منها حتى انقطعت السلسلة ، بالرغم من وعد جريدة « الاستقلال » لقرائها بقرب عودة ابراهيم الى مواصلة حلقات السلسلة « وانقطع عنها بالحاح من ياسين الهاشمي »(١٥) .

* * *

(١٣) جريدة « الاستقلال » ـ ٢٣ ـ تشرين الثاني ١٩٣١ ص ١
(١٤) الاماني ـ العدد ١ ـ ٣٠ كانون الثاني ١٩٣١ .
(١٥) خيري العمري ـ مجلة « الاقلام » ـ تشرين الاول ١٩٦٤

وقد رأت السلطة ، انذاك ، أن خير وسيلة لاسكات هذا الصوت المدوي الساخر هي الوظيفة .. ، وهكذا أعادت ابراهيم صالح شكر الى الوظيفة في الرابع والعشرين من آب ١٩٣٢ وأسندت اليه وظيفة « مدير ناحية تكريت » . ثم عين مديرا لناحية « شهربان » في ٧ كانون الاول ١٩٣٢ ثم قائمقاما لقضاء « شهربان » في ٦ أيلول ١٩٣٣ ثم عين قائمقاما لقضاء « قلعة صالح » في ٢٤ أيار ١٩٣٤ الخ ...

وهكذا نرى أن هذا التنقل في الاقضية والنواحي البعيدة عن العاصمة كان مقصودا تجاه كاتبنا الحر الملتهب المزاج . فقد كان الحاكمون لا يطمئنون من وجوده في بغداد ، فواصلوا نفيه على الطريقة المهذبة ! ..

وقد ترك هذا الاسلوب اللئيم في نفس ابراهيم مرارة طفحت على رسالته(١٦) الوجدانية الثائرة التي وجهها من « قلعة صالح » في السابع عشر من حزيران ١٩٣٤ الى صديقه المرحوم « احمد عارف قفطان » والتي فضح فيها بصراحة متناهية غابة الحاكمين من ابعاده عن بغداد حيث قال :

« سيدي الاخ الاعز أبا كمال

الاحساس الناعم الرحيم ، النفس الطيبة الكريمة ، الخلق الفاضل النبيل ، وما الى ذلك من سجايا لامعة وضاءة ، الفتها فيك ، ونعمت بها منك ، فاذا جاء كتابك زاخرا ، حافلا بالرائع الجليل منها ، فما ذلك اول عطف يغلغل في نفسي ويتملك فيها أقداسا ، لم تجردني الاقدار القاسية من الحرص عليها والتمسك بها . ثق اني كذلك ، ولم تصيرني الايام غير ذلك .

لست شقيا يكتب مقالا عن آلام الشقاء ولا دجالا يتعمد الاستهواء والاخاديع ، ولا طائشا يتحجب الحكمة ويباعد التعقل ، وانما أنا قطعة من الالم الصامت والحزن الاخرس . واذا تعمدت مقابلة الناس بالمرح العابث المستهتر ، والابتسام المشرق الطروب ، فتلك انتفاضة الذبيح وبسمة المحتضر .

في عام ١٩١٥ دهم الطاعون الجارف البيت الذي درجت فيه فاجتاح في يومين اثنين والدي ووالدتي . في الاربعاء قضى على أمي ، وفي الخميس على ابي ، وفي السبت الحق بهما جدتي ، فخلت الدار الا من طفلة عمرها سبع سنين ، هي أختي ، وهي الميراث الحزين المقدس ، وانا جندي يتملكني البؤس ، وليس معي ما يكفي لاكفان الموتى وحفر القبور ، ثم اعقبت هذه النازلة شهور ثلاثة ، فاذا الاتحاديون يحكمون علي بالنفي الى درسم في الاناضول ، نفيا سياسيا يحمل عار « الخيانة الكبرى » لدولة الخلافة ، فمضيت الى منفاي والعيون الحمراء تنظر الى « عمامتي البيضاء » بالنظر الساخط البغيض ..

ولما وصلت الموصل أودعت السجن ، فلبثت في غياهبه أربعة شهور وليس لي في بغداد أي أحد من الرجال الذين يمتون الي بقرابة حتى أستطيع أن كتب اليهم ، فكانت عناوين كتبي تارة باسم عمتي العجوز وأخرى باسم الطفلة المفجوعة بأمها وأبيها واخيها أيضا ، وكنت أتجنب الكتابة الى أصحابي لئلا يؤخذوا بجريرة « الخائن » وانت تعلم طيش الاتحاديين في أيام الحرب .

وهكذا امضيت الحياة ، جروحا فائرة بالدماء ، وآلاما

(١٦) عبدالقادر البراك ـ « أعلام من الشرق » ص ٤٨ ـ ٤٩

طاغية عنيفه ، ولكني كنت افيض بالاشراقة الناعمة الباسمة ، فاوهم الناس باني سعيد !

وتبدلت الايام ، وتلاشى الاتحاديون ، وجاء عهد الاعاريب، ولم يعد النفي الى درسم جائزا والى غير درسم كذلك ، ولكن حكومة الاصدقاء شاءت ان انفى في عام ١٩٢٤ الى قلعة صالح ، فتم النفي ، وحيا الله العهد المبارك ، عهد الاعاريب ، وعهد الاصدقاء . والفرق بين النفي الاول والنفي الثاني ، اني في ذلك كنت أحمل « لقب الخيانة » وفي هذا احمل « لقب قائمقام» اما النتيجة فواحدة ، الا اذا كان الشنق في حبل من الحرير غير الشنق في حبل من الخوص الخشن الغليظ .

انني لست مصيبة على نفسي فحسب ، وانما مصيبة على الذين اخلص لهم ويعطفون علي ، واذا كان فيما اكتبه اليك مؤلما فارجو ان لا تدع شيئا منه يدخل الى نفسك ، فان الالم شيء طبيعي في حياة هذا التاعس المنكود .

« ابراهيم صالح شكر »

* * *

عندما اراد الانكليز اذلال العراق للمرة الثانية اثناء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤١ تحت ستار تطبيق بنود المعاهدة العراقية البريطانية لسنة ١٩٣٠ المشؤومة ، التهبت دماء الاباء في اجساد العراقيين وتجاوبت مشاعر الاحراروا جمع الوطنيون على خوض معركة الصمود تحت قيادة الزعيم الثائر المرحوم « رشيد عالي الكيلاني » . فلا عجب اذا ما تجاوب اديبنا الثائر ابراهيم صالح شكر مع الثائرين ، وارسل الى قائدهم برقيته(١٧) المشهورة .

وبعد ان تمكن الانكليز من اخماد ثورة الجيش والشعب العراقي سنة ١٩٤١ وعاد اذنابهم الهاربون الذين ربطو مصيرهم بمصير اسيادهم الى ارض العراق تحفهم الحراب البريطانية ، ليمارسوا اعدام ابطال الثورة وسجن وتشريد الاخرين من الاحرار، انزوى ابراهيم صالح شكر، الذي فصل من الوظيفة بسبب برقيته الانفة الذكر الى رشيد عالي ، متوقعا ان تمتد اليه اليد السوداء لتزجه في السجون المظلمة او المنافي النائية مثلما زجت اترابه من احرار رجال الفكر في هذا البلد .

ولما كان توقع الشر اشد هولا من الشر ، و « توقع المصيبة اشد هولا من وقوعها » ـ كما يقول ميخائيل نعيمة ـ . فليس من الغريب ان يحطم انتظار الشر اعصاب ابراهيم المرهفة فاصبحت في حالة يرثى لها من الضعف والخور وساءت صحته لا سيما بعد شنق صديقه السبعاوي ، فاخذ يتهرب من الواقع الاليم بقراءة الكتب الصوفية القديمة ، منزويا في القسم الخلفي من مكتبة المثنى بسوق السراي .

وبينما هو يعاني هذه المحنة النفسية الضارية اعلن عراق عبدالاله ونوري السعيد الحرب على دول المحور سنة ١٩٤٣ !! فوجد ابراهيم في ذلك فرصة مناسبة للتنفيس عن ضعفه وانهياره لعله يصيب مغنما بعد ان عصره البؤس ولذعته الفاقة، فوجه الى « نوري السعيد » البرقية العجيبة التالية التي نشرتها جريدة « الزمان » (١٨) تحت عنوان « الواجب الوطني ـ الاستاذ ابراهيم صالح شكر يؤيد اعلان الحرب ويدعو الى توحيد الصفوف في سبيل الظفر . » :

« فخامة رئيس الوزراء ـ السيد نوري السعيد ـ بغداد

... من فيض الرافدين هذا الماء . وفيض الرافدين بركة ونماء . فلتهتف الدنيا وليصفق التاريخ . فقد هتف العراق فصفق الانكليز . وقد كبرت بغداد فهللت لندن . واذا جاءت روعة البحر تستقبل روعة النهر ، فقد تلاقى مجد ومجد وامتزج شعب وشعب ، وتواءم سلاح وسلاح . وفي الافق ايماضة الامل واشراقة الرجاء .

ان العراق في اعلانه الحرب على دول المحور يتطلب اخلاصا محضا لا غموض فيه ولا ابهام . ومن واجب الحق وواجب الشعب وواجب الوطن ان تذوب اهواء الافراد شخصية كانت او سياسية ، ليستمر الاتجاه القومي في سيره القويم ، والكلمة العليا في مراحل التاريخ وتازم الحوادث انما هي للوطن فقط ، وفي سبيله تفنى الاراء والاهواء والشهوات .

ياربيب الثورة العربية ورمز الجهاد في سبيلها ، اصاب الله بك المراشد وحقق الاهداف وابلغ العراق نصرا تطمئن اليه حقوق الحرية والعدالة والاستقلال .

لقد بدانا فلنستمر ، والبداية الحازمة ظفر مأمون العواقب ، مكفول الخواتيم ، وللعراق احلام وامال واطماح .

ويابى الله الا الوحدة الشاملة والمجد الخالد والجلال الرفيع . عاش العراق . عاش الملك .

ابراهيم صالح شكر

* * *

يقول « عبدالحميد الكنين » (١٩) في معرض تعليقه على هذه البرقية ما يلي :

« .. تذرع بان البرقية الثانية انقذته من (ربقة الاعتقال) ومكنته من (وظيفة استخدامية) كان محتاجا الى موردها ، بيد انها كانت سببا لموته الادبي ، وسببا لموته الابدي في آن واحد ، وذلك بعد هزال بدت منه الكليتان .

وقد اهيلت على مرقده حفنات من تراب ياما اهالها قلمه على مراقد اولئك الاحياء القابعين بقبور احياء متحركة .

ولله عظمة الموت وجلال القدر » .

وقبل ان نرسل راينا في هذه البرقية وفي تعليق الكنين عليها ينبغي ان نشير الى حقيقة واضحة وضوح الشمس وهي

---

(١٧) « فخامة الزعيم الجليل الاستاذ رشيد عالي الكيلاني ـ بغداد .

السحاب الاحمر انما يتدفق في الافق ليشرق على مجد ملؤ الرقاد بين الاحلام والذكريات ، فهب الى الجهاد في حشد واسع من الامل ، واضح الرجاء ، يستمد النصر من نور الله ويابى الله الا ان يتم نوره .

وبين زغاريد البطولة وهتاف الشرف وتهاليل الكون يتولى الذادة والحماة امانة الجهاد في كتائب حمراء تواكبها هالة من ضياء يوهج بالايمان وتقوى الرحمن .

باسم الله والوطن . حيا على الصلاح . حيا على الفلاح . حيا على خير العمل .

ابراهيم صالح شكر
قائمقام خانقين »

(جريدة « البلاد » ـ السنة ١٢ ـ العدد ١٦٩٦ـ٤ ايار ١٩٤١ ص٢)

(١٨) العدد ١٦٢٣ـ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٣ ص ٢

(١٩) ملحق المنار ـ العدد / السنة ١/٣١ اذار ١٩٦٨ ص٤٧ .

ان هذه البرقية لا تعدو ان تكون نفاقا من الطراز الاول ، لان جميع الفاظها لا تعبر عن مشاعر ابراهيم صالح شكر الحقيقية تجاه الانكليز وخادمهم نوري السعيد .

ان كره ابراهيم صالح شكر للانكليز لا يختلف فيه عاقلان وان رايه الحقيقي في (الباشا) معروف ، لا سيما عندما ابرم معاهدة ١٩٣٠ العراقية البريطانية الجائرة فتعرض لهجمات ابراهيم الساخرة . وحسبنا ان نستشهد برايه الصريح في الباشا المنشور في فصله المطول « قلم وزير » (٢٠) ، حيث قال تحت عنوان « الجندي الصغير » (٢١) :

« الجندي الصغير !

هذا لقب « متواضع اطلقه نوري باشا السعيد على نفسه ، في الكتاب الذي ضمنه « منهاج وزارته » هذه وقدمه الى مليك البلاد .

فهو « الجندي الصغير » منذ الف الوزارة الاخيرة ، وهو « الجندي الكبير » في الوزارات الانتدابية التي تعاقبت في هذا البلد الكئيب المعذب . ثم انه « الجندي الاكبر » في كل وزارة اقدمت على اعتناء البلاد « بالمعاهدات » التي يطمئن اليها الاستعمار الانكليزي الغاشم ، ويتململ منها الشعب الابي الباسل .

وهل علمت شيئا من ماضي « الجندي الصغير » ؟

وهل عرفت نوري السعيد من قبل ان يصبح « صاحب المعالي نوري باشا » ؟ .

وهل عرفت « حضرته » من قبل ان يكون « فخامة » الجندي الصغير ، او الجندي الكبير ، او الجندي الاكبر ؟

اظنك لم تعرف شيئا عن هذا واذاك ، وانما تعرف ان صاحب المعالي بالامس ، وصاحب الفخامة اليوم كان « الوزير الدائم » في الوزارات التي تالفت في « ظل الانتداب » المقوت ، ثم تعرف انه « بطل المعاهدات » التي تم للانكليز فيها ما شاءته سياستهم الجشعة القهارة ، اذن فانت تعرف انه نوري باشا فقط ! اما انا فاعرفه المعرفة الواسعة ، التي تتناول ماضيه المنسي ، وحاضره النابه ، و « مستقبله المجهول » ، فالحياته عندي « صحف منسية » و « سجل محفوظ » ، فاذا طالعتك بها عرفت من هو نوري السعيد ، واي حياة له في هذا البلد المبارك ! ولك ان تطالبني بما يجوز التبسط فيه من « حياة الباشا السعيد » ، ولي ان اقص عليك ما استطيع التبسط عن ذلك .

اذن فارهف سمعك ، ففي الحديث « قصة » ممتعة ، ولذة طريفة ، وحقيقة مكتومة . » الخ ....

ورايه في « مجلس الباشا » الذي ابرم معاهدة ١٩٣٠ الجائرة . قال تحت عنوان : « مجلس الباشا »(٢٢) ـ والمقال غير موقع ـ ما نصه :

« يعرف الذين اصطحبهم في الحياة انني « نباش قبور » و « سجل اخبار » ، لا اغادر صغيرة او كبيرة ، الا ولها عندي صفحة مطوية وسجل منسي . ولكني اهتم « بالمجلس » الذي جمعه نوري السعيد من هنا وهناك ، ليستند عليه في ابرام معاهدة ٣٠ حزيران ولم اشاهد « اجتماعاته » مع اني من دعاة الاجتماعات العامة ، وهواة « الاثار » العتيقة في « متاحف التحف » !

وقد قيل لي ان مجلس نوري السعيد « يحتضر » فلماذا لا ترى « حشرجته » وتتسمع الى انين المريض ، لترى عاقبة الذين استهتروا بافداس الوطن ، وكرامة الشعب ، في الاقدام على ابرام معاهدة نوري السعيد ، تلك التي اباحت للانكليز احتلال العراق احتلالا لا اجل له ولا نهاية فيه !

فقلت : اقتراح لا باس به . فهو اذا لم يكن لمشاهدة عقبى الذين استهانوا بدماء الضحايا وجماجم الابرار ، فهو « للفرجة » رقص على المذبوح وانتفاضة الحشرجة !

وقد ذهبت الى هذا « المجلس » او هذه « المجموعة » ثم عدت الى « كوخي » لاستمع الى اللحن العذب والنغم الرائع في « اسطوانات الكرامافون » ثم حمدت الله على سلامة الذوق . ان الله على كل شيء قدير ، فله عجائب الخلق ، وله « عجائب المخلوقات ايضا ! ... » .

* * *

واذا كنا لا نستطيع ان ننفي ما يقال عن وجود صداقة شخصية قديمة بين نوري السعيد وابراهيم صالح شكر ، فمن الميسور نفي قيامها على اتفاقهما او تجاوبهما في العقيدة السياسية ...

ان ابراهيم ، عندما ابرق الى رشيد عالي الكيلاني مؤيدا ومهللا ومكبرا كان صادقا مع نفسه ومع زعيمه . في حين انه عندما ابرق الى نوري السعيد لم يكن صادقا لا مع نفسه ولا مع نوري . فهو يمجد « الباشا » بقوله : « ياربيب الثورة العربية ورمز الجهاد في سبيلها » . في الوقت الذي انكشف فيه نوري السعيد وبارت تجارته بالثورة العربية ...

ثم ان الذي لا يؤمن بـ « قائد » الثورة العربية الملك حسين بن علي فكيف يؤمن بـ « ربيبها » نوري السعيد ؟

الم يرسل ابراهيم صالح شكر رسالة (٢٣) مؤرخة ٣-٢-١٩٢٦ من « قزلرباط » الى صديقه « امين خالص » يصم فيها « المنقذ الاكبر » بالضعة حيث يقول :

« ... ولماذا تذهب الى ازمنة التاريخ البعيدة وفي التاريخ الحديث ما فيه الكفاية . الم تكن ضعة انور وجمال وطلعت فائزة على كرامة الدولة العثمانية ؟ »

والم تكن ضعة « المنقذ الاكبر » هي الفائزة على كرامة العرب الذين خسروا بتلك الضعة كل شيء كانوا يرجونه لبلادهم؟ والم تكن ضعة رجالنا فائزة على كرامة قطرنا ؟ » .

---

(٢٠) نشر القسم الاول من حلقاته بصورة متسلسلة في مجلة « الاماني » سنة ١٩٣١ ونشر القسم الثاني في جريدة « الاخبار » في السنة نفسها .

وقد احسن الاستاذ خالد محسن اسماعيل صنعا عندما جمع جميع هذه الحلقات في كتاب جيد الحق به تعليقات وافية عن الاعلام والاماكن وغيرها نشرته له مطبعة المعارف في بغداد سنة ١٩٧٠ فسد بكتابه هذا فراغا في المكتبة العربية واستحق بجهده المخلص الشكور ثناء المنصفين .

(٢١) خالد محسن اسماعيل ، ص ٢٥ .

(٢٢) مجلة « الاماني » ـ السنة ١ ـ العدد ٦ ـ ١٤ مارت ١٩٣١ ص ٢ .

(٢٣) اطلعني نجله السيد مليح على نسختها الاصلية ويجد القارىء نصها مدرجا في قسم الرسائل الملحق بهذه الدراسة .

واما قوله : « .. فقد هتف العراق فصفق الانكليز . وقد كبرت بغداد فهللت لندن . واذا جاءت روعة البحر تستقبل روعة النهر فقد تلاقى مجد ومجد وامتزج شعب وشعب ، وتواءم سلاح وسلاح. وفي الافق ايماضة الامل واشراقة الرجاء ». فمن التزييف المضحك الذي ما بعده تزييف !

ومن يدري ، لعل نوري السعيد قد استغل الوضع المالي المتردي للبركان الخامد : ابراهيم صالح شكر وتشبثاتـه للحصول على وظيفة تبعد عنه وعن اسرته شبح الفاقة المرعب ، فارسل اليه من افهمه بان ثمن الوظيفة بل ثمن العيش انما هو التماس رضا نوري والانكليز في آن واحد بصورة مكشوفة امام الراي العام ، وما على دافع هذا الثمن الباهظ الا ان يخنق كرامته ويروض اباءه ويرضى بالسقوط !!..

وعلى اي حال فان ظروف ابراهيم السيئة قد دفعتـه الى هذه الكبوة ولطخت صفحته الوطنية الناصعة بهذه البقعة الغريبة السوداء ، فلا ينبغي ان نحاسبه الا من خلال حسابنا العسير لاولئك الاذناب الذين الجاوا اسودنا الجائعة الى مثل هذه الجيف ...

* * *

وبعد شهر من هذه البرقية عين ابراهيم صالح شـكر مديرا لمكتبات الاوقاف العامة بموجب امر اداري (٢٤) اصدره مدير الاوقاف العام آنذاك ..

* * *

عاش ابراهيم بعد برقيته المشؤومة التي وجهها الى نوري السعيد وهو يعاني ذلة الكريم المقهور وآلام الثائر المدحور ...

والحالة النفسية السيئة تؤثر ـ كما لا يخفى ـ علـى الجسد تاثيرا سيئا . فلم يكد مرض ذات الرئة يداهم جسمه الهزيل حتى هده هدا ، ولم يكد يتمائل الى الشفاء بعد مزيد من العناء حتى حصلت مضاعفات ادت الى السل الحاد ...

ويتلفت المريض المنهار الى عواده في مستشفى العلمـين ببغداد ، ثم يعصر قلوبهم بكلمات مرتعشة مؤثرة :

« ساموت في هذا المكان لا شهيدا ولا بطلا » .

---

(٢٤) (صورة الامر الاداري)

امـــر اداري

الحكومـــة العراقيـــة
مديرية الاوقاف العامة — العـدد ٢٠٣٧
شعبة : الاملاك والمعاهد — التاريخ ٢٣-٢-١٩٤٣

بناء على رغبة فخامة رئيس الوزراء في العناية بالمكتبات العامة وخاصة ما يعود منها للاوقاف ، يعين السـيد ابراهيم صالح شكر مديرا لمكتبات الاوقاف العامة باعتباره مستخدما براتب قدره ثلاثون دينارا في الشهر ليقـوم بما تحتاج اليه هذه المكتبات من تنظيم وعناية .

مدير الاوقاف العام

صورة منه الى :
سكرتير مجلس الوزراء
مديرية اوقاف بغداد ـ لبيان تاريخ مباشرة الموما اليه
شعبة الحسابات
شعبة الاملاك والمعاهد
الموما اليه السيد ابراهيم صالح شكر .

وفي الساعة السابعة والربع من مساء اليوم الخامس عشر من ايار ١٩٤٤ فاضت روح ابراهيم الى بارئها الرحمن الرحيم بعد صراع عنيف تعددت اسبابه واختلفت جهاته ..

وفي ضحى اليوم السادس عشر احتفل احتفالا كبيرا بتشييع اديبنا الراحل من داره في « رخيته » حيث وضعت الجنازة على سيارة مكشوفة وبجانبها رسم الفقيد . وسـارت تتبعها سيارات المشيعين في خط طويل حتى بلغت جامع الشـيخ عبدالقادر الكيلاني . وبعد اداء الصلاة على الراحل الكريـم حمل الجثمان على الاكتاف الى مقبرة الغزالي وسار خلفـه جمهور غفير من المشيعين يتقدمهم رئيس مجلس الاعيان ورئيس مجلس النواب ووزير الخارجية ووزير المواصلات والاشغال ووزير الاقتصاد وجماعة كبيرة من الاعيان والنواب وكبار موظفي الدولة ووجوه البلد من ادباء ومحامين وغيرهم ..

وجميل جدا ان يسير الكبراء في جنازات الادباء تقديرا لجهادهم وتثمينا لمثلهم .

ولكن اين كانت هذه الشخصيات الرسمية التي تحل وتربط يوم كان ابراهيم مفصولا من الوظيفة يعاني من الفاقة والتمزق النفسـي ؟! ...

اما كان بمقدور هذه الشخصيات ذات الكلمة المسموعة اعادة ابراهيم الى الوظيفة قبل ان يؤدي الثمن الباهض ببرقيته السيئة الصيت ؟!

وعلى اي حال فلم تكن اعز امنية لدى ابراهيم ، وهـو يصارع الموت ، ان يشيع تشييعا رسميا ، وانما كانت امنيته القصوى ان يخف اخوه الحبيب امين نخلة الى رثائه وهي امنية سامية جميلة تدل على مدى اعتزاز اديب العراق باديب لبنان ، فقد ارسل ابراهيم ، عندما كان يصارع الموت ، رسالة مؤثرة أملاها على ولده رياض ، الى صديقه عبدالجليل الراوي سكرتير المفوضية العراقية في بيروت هذا نصها :

« سيدي الاستاذ عبدالجليل بك الراوي

تحية مشرفة واحترام صميم . وبعد : فان الالام ينبوع عذب ، ولكن (ذات الرئة) مرض وبيل ، وهو يلازمني منـذ سبعة عشر يوما . وقد وصل كتابك الاخير والشمعة تـذوب والذبالة ترتجف ، وما ادري ! اهذه الكلمات هي اخر ما امليه على ولدي رياض ، ام اني قادر على أن استقبل مشرق الشمس ومشهد الغروب في مستقبلي المكتظ بالمحن والاكدار . ومـا ادري اتهز الفاجعة اخي الحبيب امين نخلة فينشد مرثية الفجر في مأتم الشفق ... ام ماذا ؟ اني سقيم ! وعندي مجموعـة ثمينة من الامراض ما زال الطب في حاجة الى بحثها . ولـكن (ذات الرئة) انما هي انتفاضة الذبيح ، والشهيد فرقـد ، لا مرقد ...

ان الكتاب لم يصل . وما اطلعت عليه . وقد فات الوقت. ولكن في الابد المجهول اواجد انا ما اقرا ؟ لقد ابتسـمت للنسيم ، وضحكت من العاصفة ، والان ابتسم ولا اضحك ، واضحك لئلا ابكي !

اخي عبدالجليل : اني استقبل الموت ، ولكن اقبس هو من ضياء ، ام ومضة من نور ؟ ام ان هذا هو نعيي اليك ... وفيك العوض الثمين ! »

* * *

نشرت جريدة « الديار » اللبنانية هذه الرسالة بعددها المؤرخ ١٨ حزيران ١٩٤٤ تحت عنوان « اديب العراق ابراهيم

صالح شكر ينعي نفسه ويطلب ان يرثيه امين نخلة ثم يسلم الروح » . وقد علقت عليها قائلة :

« وقد وصل هذا الكتاب المؤثر في البريد ، ومعه جرائد بغداد اليومية وفيها نعي صاحبه . اي ان هذا الكتاب هو اخر ما جرى به قلم الفقيد الكبير ، رحمه الله . فكان للكتاب في اوساط المدينة رنة حزن وجزع .

وها ان الاسماع منصتة لما سيقوله اديب لبنان الاستاذ نخلة في صديقه اديب العراق الاستاذ شكر ، الذي جعل كل امنيته من الادب ، كما رايت في الكتاب ، هو ان يرثيه أمين نخلة .. » .

ولم يخيب امين نخلة امنية صديقه الحميم ابراهيم فانشد « مرثية الفجر في مأتم الشفق » ونشرها في كتابه «الملوك» تحت عنوان « كاتب العراق » (ص ٧٠-٧٩) وهذا نصها :

سقى الله ليلة دمشقية ، كانت لنا على « الربوة » ، وبساطا ، وسامرا ، وحديثا تحت الشجر ، يأخذ باطرافه بغدادي من « باب الكرخ » ودمشقي من « القنوات » ، ولبناني من هذه الهضب ، التي على الماء ، في عالية « الشوف » . وياعجب العاجب ! ثلاثة رفاق ، من ثلاثة افاق ، ولا يعوزهم، من اول الليل حتى شهقته بالصبح ، ترجمان ... فلما ارتفعت الشمس ، ووقف قرصها بين ذينك الجبلين ، المتقابلين ، على الضفاف ، فمنا نحن ، والانهار ، والشجر ، وجنايب الوادي ، نسجد (او كاننا نسجد) لاحدى الاختين ، الكريمتين (شمس الله ، وشمس العربية) ، اللتين تفيضان فيضهما على بغداد ، ودمشق ، ولبنان ، في آن معا !

ولما غدونا في بعض الطريق ، وقد رجعنا ادراجنا ، والارض حولنا عاشبة ، ميهة ، اشبه شيء بمناديل مزخرفة ، من حرير الصين ، فهي تحرك الخيال ، وتحرك الامل ، قال ابراهيم :

« مساكين جماعة الجغرافيين ، واهل التخطيط ، حين يكون امرهم مع هذه العربية ! يصورون الحدود والخطوط ، وهي تجاوز الصور ! ويارب كلمة من الشعر ، يهتف بها قائلها، في بلدة غامضة ، من ارض العرب ، فهي تتخطى الصحاري ، وتثب الجبال ، وتتطاير الى الفرانين ، الى ما وراء النهر ، الى الجزيرة ، الى النيل ، الى عدوة افريقية الى الساحل الشرقي ، من المتوسط ، الى اخر ديارهم ، تحت سماء الله ، لا يحول دونها حد ، ولا حجاز ! » .

فقال صاحبي الاخر : « ولا حجاز لبنان ؟ » (يلمح هنا ، في الطف المعارض ، الى اشفاق بني قومنا ، اللبنانيين ، على جبلهم والى شدة خوفهم عليه) . فلت : « ولا حجاز لبنان ! » . وكان ذلك اول عهدي بابراهيم صالح شكر .

* * *

تلقى ابرهيم ، يومئذ ، فترى رجلا ربعة ، الى الطول ، قد هدف للاربعين ، يجتمع عليك منه ضخامة تقطيع ، وشدة اوصال ، وعظمة تجاليد ! ثم يسكن اول ذلك ، فما تشعر الا بعينين سوداوين ، واسعتين ، قد تقاسمتا لطف الشعاع ، فوقهما حاجبان ، دقيقان ، بينهما خلل ظاهر ، وبجبهة رحبة ، وناصية سوداء ، مجتمعة في كثافة ، وجعودة وبانف وسط ، وفم وسط ، ولحية من قصر الشعر ، وقلته ، تدور هناك كالظل الرقيق . ركب ذلك في وجه يضرب الى السمرة ، فيه تغضين ، وفيه لمعات من عصب مكدود ، ونفس معتصرة . ثم شيء محبب ، قريب المتناول ، كانه الملاحة . الله ! الله ! في تلك المرآة الفريدة لا الحمام على عود ، ولا ريشة على العود ، اشجى مما يحدثك به وجه ابرهيم ، بين الصمت والكآبة ... فانظر - يارحمك الله ، هذا كاتب العراق ، غريد الحرية ، ومغني رفائق الفصاحة ، في ظل النخيل ، على دجلة . فطرة من قلمه ترجع بلجج الحبر ! وصيحة في البطحاء من صيحاته ، هي اشد هولا على جنباته ، من جلجلة الرعد ! هذا الذي اقام جيلا ، وأقعد جيلا ، وتقاسم ، هو والغيث ، في ملك « هارون » ، فخر الربيع الجديد ! هذا ابرهيم صالح شكر ! فما باله يقبل عليك، اذ هو يقبل، وكانه متبرم بالناس، ممتلىء الصدر بالجفاف والجزع ؟! ثم ما بالك ، انت ، تفطن في طلعته عليك ، لارتوائه باللوعة ، وتشعر لغمطه في العيش ! اتراك تحس لكل كاتب هذا الاكتئاب ، وتشعر عنده لهذا الحرمان (حتى كان صناعة الحروف ، وهي التي من غاياتها تذكية القلوب ، وتعهدها بالانشراح ، كفاؤها الحزن ، والغبن) ام انك لا تحس ذلك ، ولا تشعر له ، الا اذا بدا لك ذلك الكاتب !

اما اذا اخذ المجلس زخرفه ممن حضر ، وطفق ابرهيم يشقق الحديث ، بين النغمة الرخيمة ، والاشارة المستملحة ، رأيت طلاوة ، ورأيت مطايبة ، وخوضا في الحديث ، هو اكثر تخللا الى حواشي الروضة المطورة ، منه الى حواشي الكلام ! فثم ما شئت من غزارة مادة ، وسعة رواية ، وحسن تصرف ، في مختلف المحاورات . وتعجب ، عندئذ ، كيف ينبعث ريحان الحديث من شعل الاحشاء ...

* * *

ولقد كتب الله لي ، في تلك الليلة ، على « ربوة » دمشق ان يجري بيني وبين ابراهيم كل مستمتع ، وان اتشمم ، في مهلة ، ريحان احاديثه ، وان ارى بعيني كيف عاد بالجزع ، في عالم الحوادث ، كاتب نفح الغبطة في عالم الفنون ! ثم اني رايت ، لاول مرة ، في تلك الليلة ، كيف يستطيع ، في صدعات الرأي ، والهوى ، بين ملتي العرب ، ان يزرع ، زرع الخير ، من يقايس الفوز بالسعي ، ويجعل المطلب على مقدار الممكن ، ويفيض الى عقول الناس من وراء قلوبهم ...

كانت عروس الغوطة ، دمشق ، قد نفضت ، يومئذ ، ثوبها ، بعد ايام الحديد والنار ، وهدأ روعها ، الا قليلا ، واخذت تثقل قدمها من حجر الثورة الى ورد « الجمعية التاسيسية » . فمن راى دمشق ، قبل ذلك ، وهي تتدفق باللهب والشواظ ، والصخب العالي ، بين البيوت ، ومغامض الشجر ، وراء بردى ، لا يستطيع ، في ذلك السهر الشهي ، وهو على مقربة من مضجع العروس النائمة ، ان يصرف لسانه عن حديث « الاليذاذة » الدمشقية ! فحدثنا بنعمة الله على دمشق طويلا ، وتذاكرنا اجادات معلقتها على كعبة الفخر ! ثم ترامى بنا الكلام الى ذكر نصارى العرب ، وحال اللبنانيين ، منهم ، بقضيتهم ، في بلاد الجبل ، وبقضية اخوانهم في الاقاق العربية . فانطلق ابرهيم بتوسط في هذا الصدد ، بين لوم ومعذرة ، في الطف ما يكون التلميح الى الاتهام ، والتنويه باسم الثقة ، مفصلا ما كان ، هنا وهناك ، بعد انتقاض العقدة، وتصدع العصا ، من احوال ، وافعال شتى ، عفا الله عنها ! ثم رأى ان لا يمهلنا حتى نقول ، فعطف على التاريخ ، يعرض لنا منه ايام الشمل المجتمع ، والكلمة المتفقة ، بين الملتين ، في العرب ، ويعجب كيف يرمى بتهمة الرضا من العين بالاثر اولئك الذين منهم العباديون ، سادة الحيرة ، وساسة الامر ،

في ملك بني ماء السماء ! ومنهم الاحبار ، من بني عبدالمدان ، الذين بسط لهم رسول العرب بردته ، فجلسوا ، بين العيون، على بساط العزة ! ومنهم خطيب العرب ابن ساعدة ، وطبيب العرب ابن كلدة ، وحكيم العرب ابن صيفي ! ومنهم ابن ربيعة ، مرقق الشعر ، ومقصد القصيد ، وابن وائل ، مضرب المثل في المنعة ، والاخطل الذي نودي ، في السكك ، بامارته على الشعراء ـ والصليب منبطح فوق صدره ! ومنهم الملوك من آل جفنة ، في حوران والبلقاء ، اصحاب « البريص » الذين سقوا بردى « يصفق بالرحيق السلسل » ...

ومنهم ابناء سرجون ، وزراء التدبير في بلاط امية ! ومنهم بنو جذام ، وبنو كلب ، قواد معاوية على الرايات ، ومحضرو اهل البداوة ، في الاطراف ! ومنهم اشراط البحر الاحمر ، وقادة العمارة العربية الاولى ، في فتح قبرص ، ورودس ، وفي قهر عمارة بيزنطية ! ومنهم اصحاب « الصليب ومار سرجيس » الذين اخمدوا ليزيد ، في الحجاز ، نار ابن الزبير ! ومنهم ابطال « الاخطلية » الكبرى (خف القطين) ، الذين رمى بهم ابن مروان على المتالبة ، في عراق ، وحجاز ، وعادوا براس ابن الحباب ، فوق رمح ! ومنهم اصحاب العلم الهندسي ، الذين بنوا الجامعين : الاموي والاقصى ، والقصرين : الحير، والمشتى ! ومنهم المعربون ، والمؤلفون ، الذين حاكوا باقلامهم وشي العربية ، على فلسفة اثينة ، وحكمة رومة ، من زمن معاوية الاموي ، الى زمن الواثق العباسي ! ومنهم الرهبان ، الذين آووا لغة محمد ، وانزلوها في الاديار ، والبيع ، منازل الامنة ، يوم تدفق على ديار العرب طغاة العجمية ، امثال هولاكو ، وجنكيز ، وتيمورلنك ... الى اخر ما سرد ابرهيم من الامر النصراني في تاريخ العرب ، مما يرد القلوب الى التذكار ، والحنين . واذ هو فرغ من ذلك ، قلنا له : لك الله ! ملات المكان سحرا ... فلقد رأينا جمال ازمنة ، ورونق ممالك ، وآنسنا امة ، وجامعة واتحاد وجهة » . ثم قلنا له : « لك الله مرة ثانية . هكذا يكون الدخول من ابواب القلوب !! » ...

* * *

فمن كان يبكي ، اليوم على ابرهيم ، لقلم تركه ، ولا من يستطيع ان يغمسه في دواة من نار ، ذهابا مع حرية في النفس، تملك على صاحبها اللسان ، والفكر ، وتلجج به في محيط الاحزان ، والالام ، والعداوات ، وشدة الضغط ، ، والفاقة ، مما قد كتب على بسلاء الراي ، في هذا المجتمع الانساني ، من الذين يضيئون العقول ، والقلوب ، كالمشاعل ، ثم يحترقون في زاوية مظلمة ، من عالم الفداء ! او كان يبكي عليه لطريقة في الكتابة ، هي كالموج في مجمع الفراتين ، في الوادي : سلاسة وصفاء وحلاوة حركة في الرضا ، ورغوة وتدفق وضوضاء في الغضب ـ مردودا ، كل اولئك ، الى رصانة جمل ، وشرف فرائد ، الى ملكة ، من اشد الملكات انطباعا على الفصاحة ، فمن كان يبكي على ابراهيم من اجل هذين ، فاني بكيت ، فوق ذلك ، لعربي ، رأيت منه ، في ليلة ((الربوة)) كيف يكون الجمع الصحيح بين رياح العرب . وها انا قد مضى علينا نحو من خمس عشرة سنة ، منذ لم نلتق ، وانا لا اجد في ذلك ، من ياتي العجب الذي اتاه !!

ثم اني بكيت لاخ ، قد عبر الجسر الى الاخرى ، وبقيت انا في الدنيا ، انظر منها ، واسال ، بعد المعشرالعابرين : ايهما اضحت دار الاحبة ...

رسائله

تفضل الاخ السيد مليح ابراهيم صالح شكر فاطلعني على اصل الرسائل المستنسخة التالية بخط المرحوم والده ما عدا الرسالة الموجهة الى المرحوم اكرم احمد التي نقلتها عن مجلة « الوادي » البغدادية .

فالى الاخ مليح شكري وامتناني(١) .

ـ ١ ـ

قزلرباط ٣١ـ٥ـ١٩٢٥

اخي الاعزالمحترم خليل افندي

اخذت كتابك الان ، وبعد ان كلمتك على « آلةالتلغراف » وصافحتك ، عمدت الى كتابة هذه الرسالة . اما اخبار كتابك فقد علمت منها مقدار شجاعة ذلك الرجل ، فهو يخشى مخاصمتك ولكنه يريد ان يسحق من له صلة بك ، خبث كله جبن ونذالة .

ان بطرس ميسور سحقه لكل احد ، ولكن الشهم المقدام هو الذي يستطيع ان يخاصم من فيه قوة .

ان السكر والقمار امرهما شائع ، وكل رجال الدولة ورؤساء الحكومة يسكرون ويقامرون ، متى انتهوا من اعمالهم ، وخرجوا من دوائرهم ، وليس لاحوالهم الخصوصية علاقة باعمالهم الرسمية ما دامت تلك الاعمال سالمة من « العيب » وما يحط في شانها .

اما اذا حاول ان يكتب الى المتصرف عنك ، او يخبر محمود شكري باشياء باطلة ، فلا اظنه يفلح ، لاني اعرف جيدا ان علي جودت بك يعرفك معرفة جيدة لا يمكن ان يفسدها هذا الرجل ، لانه يعرف كذبه ، وعلي جودت انما اختاره لهذه الناحية ، لما وجده فيه من طاعة عمياء لتمشية مصلحة «شركة اصفر » التي هو مكلف بتمشيتها ، ولذلك هو يستفيد من طاعته الضعيفة في هذا الباب بدون ان يغفل عن ما فيه من كذب ونفاق ومراوغة ، وهو يعلم ان هذا الرجل كان قد احسن اليه احمد حالت بك احسانا عرضه للتهمة ، حتى اذا انفصل من لواء ديالى اخذ يتقول عنه الاقاويل ، وقد سبق لخيري الهنداوي ، وجواد طابو ، وهذا الداعي ان اعلمناه بكل احواله .

اما محمود شكري فهو لا يمكن بوجه من الوجوه ان يرجح اخبار هذا الرجل على معرفته بك .

لست اريد ان ترتاح بهذه المقدمات ، واني اعرف طيبا مقدار فوتك ، وعدم اهتمامك بمثل هذه التوافه ، ولكني اود ان ازيدك ايضاحا . وعلى كل حال اجتهد ان تكون انت صاحب الحق ، فدعه هو البادىء ولا تعاكسه في شيء ، حتى وان شعرت انه ينوي مخاصمتك ، او يزعم انه يستطيع ذلك .

الرجل مهذار ، ومنبته (....)، واسمه خامل، وعبدالعزيز يمقته ، وعلي جودت له مصلحة به الان . وهذه المصلحة انما تمكن منها في الماضي لانك عاضدته فيها ، فاذا اقتصرت معاضدتك الان على « الرسميات فقط » يتضح للمتصرف ان مصلحته انما

---

(١) وقد رأيت من المستحسن حذف بعض العبارات المرة او النابية من هذه الرسائل .

تمشي متى اردت انت ان تعضدها شخصيا ، وعندئذ يعلم الحقيقة كلها .

كن حازما كما كان عهدي بك الا اذا صرت « بومة » تقاب عليك حدة الطبع ، فتكون شبيها باخيك « الغراب » صاحب الاعصاب الضعيفة ، والصدر الضيق .

صرت ممنون جدا من ارسالك الرسوم ، وقد سررت كثيرا برسم عبدالكريم ، ارجو ان تكون صحته احسن من قبل ، قبله عني عندما « تسكر » واخبره هذه « قبلة عمو » ولا اقول « مدير » لئلا يشاركني في هذا الشعور غيري .

مع الاسف ان رياض لازمته الحمى الشديدة منذ اربعة ايام ، ولن يزال محموما ولكنه لا يموت الان ، وانا واثق من ذلك .

بلغني ان على غالب افندي الان في بعقوبا ، وقد سررت بذلك ، لانني كتبت في امس الاول تاريخ ٣٠ الجاري كتابا الى المتصرف فيه شيء من النقمة على هذه البلاد ، وحكومتها ، وارجو ان يكون اطلع عليه ليعلم انني لم ازل ذلك الناقم الذي يصب نقمته غير هياب ولا وجل على « سدارته » وليتعلم ان السدارة « تؤخذ ولا تعطى » واني اخذتها في حين ان غيري اعطيت له .

اليوم اكتب الى جواد عن « فلم السكارى » ليرسله الي واجتهد ان اقنعه بارساله .

الان اخذت « برقية » من محمود كمال وجواد المرسولة صورتها اليك ، وقد اجبتهما برقيا واعطيتك المعلومات . اما مسالة « السجن » فهي ماخوذة من كتابي الاخير الى المتصرف .

بعد ان اتم هذا الكتاب ساكتب « منشور » الى جواد ومحمود كمال ، وانت ، بامضاء « رضوان » فاذا تمكنت من اتمامه اليوم ارسلته ، والا غدا . بلغ سلامي الى الاخوان كافة ودم سالما لاخيك .

ابراهيم صالح شكر

— ٢ —

خصوصي قزلرباط ٣-٢-١٩٢٦

اخي العزيز امين افندي خالص

لا اريد ان اجاريك في « المجاملة » فانعتك باكثر مما نعتني به مما لا اعرفه انا في « نفسي » فاني لك ان تعرفه انت ولست « علام الغيوب » ؟

انا يا اخي « فارس مضمار البلاغة » اذن فمن هو « راجلها » ؟

الحق اقول انك مسرف في الرضا عن اخيك ومفرط في نعته بما لم يتوفر في كثيرين غيره . و « سامحك الله » على هذا الاسراف وذلك الافراط ، وان كنت لا تود ان « يدخل الله » بيننا في هذه المكاتبة .

اما اذا رايت في كتابي السابق ما يرتاح اليه من «مسكنات» فذلك ما يهمني ، وذلك ما اغتبط به ، ولكني اخشى ان تكون « مبالغا » في ذلك مبالغتك في نعتي باني « ينبوع المعاني » ليس في « لواء ديالى » فقط وانما في الارض والسماء والدنيا والاخرة ، والجنة والنار ، او مبالغتك في نعت نفسك بعدم القدرة على « سبك العبارة » ثم تزجي الي بذلك الكتاب الحافل بأروع الكلام ، وابدع الحكمة ، والطف ما تطمئن اليه النفوس الحساسة من لفظ مؤنق ، وديباجة مشرقة ، وعبارة منسقة مشبعة بما لذ وطاب ، ولست ادري ماذا تريده فيما لو « مكنتك البراعة والبيان من المساجلة » اكثر من هذا ؟ اتريد ان تدعني ساكتا لا اجيب على ما تكتبه الي في حين اني وان « سكت » سكوتا مؤلما مزريا الا انني في الاجابة على كتبك العذبة اللطيفة « لا اسكت ولن اسكت » .

هذه توافه ناشفه ، لا بذكر بجانبها « ايمانك الراسخ » و « توحيدك البحت » و « اسلامك الحق » ، واذا تريد مني ان « اوضح لك الطريق المستقيمة » فاني اخشى ان توصلك الى « الجحيم » الذي لا يذكر بجانبه « جحيم دللي عباس » وهذا ما لا اتمناه لك ، وانت تعلم ذلك جيدا .

تعمل حسنا ، اذا تعمدت « دفن الماضي » فالماضي لا يستحق غير « الدفن » فقد غرر بك ، وبي ، وبكثيرين غيرك وغيري، ومهد لهم الضلال فبنوا على « اساسه الواهن » قصورا من الامال والاماني والاحلام ، حتى اذا انكشف الغطاء ، ودنت « الساعة » وحل « الحاضر » اتضح لهم ان « الماضي » كذاب اشر ، ملء اهابه الخداع ، وملء نفسه الحطة والمراوغة ، ومثل « الماضي » ذلك الذي يسمونه « مستقبلا » فاياك ان تنطلي عليك « حيل دعاته » و « زخارف مبشريه » وعلى « المؤمن » ان « لا يلدغ من جحر مرتين » وانت « مؤمن » و « مؤمن » من « اول باب » .

تجلني ياامين ان اكون « رجلا طائشا » وتجلني من « ان اتطرف كل ذلك التطرف في البقية الباقية من السجايا الحميدة ، ولكن اجلالك هذا انما انت غير مطمئن منه ، اما انا فانا ادرى « بمساوىء نفسي » ولو لم اكن « رجلا طائشا » لما ارتضيت لنفسي هذا المصير المتعب الكئيب ما دمت اعتقد في الحياة اعتقادا فيه غلو كبير من « الشذوذ » والخروج على « المالوف » عند الناس من البهارج المصطنعة .

وما هي البقية الباقية من السجايا الحميدة « التي تريد الا اتطرق الى الحط منها ؟ » الحق انني اود ان ارى صورها ، لافتح « بوجودها » .

من السجايا الحميدة « الاخلاص » واين هو في هذا « الوطن العزيز » ، ومن السجايا الحميدة « الانصاف » وفي اية بقعة من بقع « العراق » محله ؟ ، ومن السجايا الحميدة « المروءة » وفي اي مقبرة من مقابر هذه الديار يمكنني العثور على « ضريحها » ؟ واين هي البقية «الباقية من السجايا الحميدة» ؟ اتجدها في « معاملة الناس » ؟ لا اظن وان رميتني « بالاثم » .

ان الوفاء في العهد ، والصدق في القول ، والامانة في المجتمع ، لم اجد لها اثرا ، فهل لك ان ترشدني الى اثرها في هذه الامة المنوثبة الى « الحرية » والانعتاق من الاسر ؟

يعز علي وانت اخي ان اراك مدفوعا بعامل النفس الطيبة الى هذا « الضلال » انك انسان . هذا كل ما فكرت به كما يظهر ذلك عليك ، ولكن لم تفكر بان هذا الانسان السوي التابه محاط « بالذئاب » و « الوحوش » و « الحشرات » .

ومن عرف الايام معرفتي بها
وبالناس روى رمحه غير راحم

تعلم « ان الله واحد لا اله غيره » اما انا فاعلم ان «الآلهة» في هذه الديار اكثر بكثير مما كانت في الامة اليونانية القديمة ، فعندنا « اله الذهب » وهو يبيح كرامة النفوس ، ومياه الوجوه في سبيل « مرضاته » وعندنا « اله المنصب » وهو يجوز الحلال والحرام في « التقرب » اليه ، وعندنا « اله الجاه » وهو مولع

بالكذب والمداجاة ، وعندنا « اله النفاق » وهو شره نهم بالطاعة العمياء والانقياد والرضوخ ، وعندنا غير هذا وذاك وذلك ، وذياك ، اذن فانت انما تهين « الهة وطنك » اذا كنت تعلم « ان الله واحد لا اله غيره » ويسؤني ان اراك « لا وطنيا » في « موسم الوطنيات » .

اجل انني « لا اعول في الدنيا على احد » حتى ولا على نفسي التي بين جنبي و « لكني لست رجل الدنيا وواحدها » وليس في الدنيا « راجل (1) واحد » وليست الدنيا « بذات رجل » وانما هي « موسى » مباحة « للرجال » ينعمون بها ويقضون لذاذاتهم منها اما عدم تعويلي على احد فقد درسته في مدرسة الاختبار ، وقد علمتني به التجاريب ، فالناس انما تعول عليهم متى اعتقد انسان بان « الفضيلة » لم تمت في نفوسهم ، اما انا فمعتقدي في الناس غير ذلك . وليس ذلك معتقدي في الناس فقط ، وانما انا اعتقد في نفسي كذلك ، ولست متخذا نفسي « مقياسا » لغيري ، وانما الناس مثلي ، وانا مثلهم ، حذوك النعل بالنعل والقذة بالقذة .

وهل انا الا من غزية ان غوت
غويت وان ترشد غزية ارشد

قد يذهب بك حسن الظن فتتوهم انني انما اكتب اليك والنقمة بفيض بها نفسي المكتئبة . لا وابيك لست ناقما الان ، واني انما اكتب اليك وجوانحي طافحة بالانبساط ، ولكني ياأخي من « المتشائمين » ذوي الامزجة السوداوية الذين ينظرون الى «...» و «الدنيا» و «الناس» بعيون حمراء ، وان كانت عاقبة تلك النظرات الحمقاء « غضب الله » و « تغير الدنيا » و « سخط الناس » .

وقد يكون ذلك « مرضا » في « النفس » او «الدماغ» ولكنه مرض ارجو ان يلازمني طيلة هذه الحياة ، وارجو ان لا اشفى منه وان اجبرت على الاقامة في هذا « المستشفى » الذي يسمونه « مديرية قزلرباط » .

« المشهورون بالوجود لا بالوجدان » كثيرون في بلدك ياامين ، ولهم الامر ، ولهم النهي ، ولهم الكلمة النافذة ، ولهم الجاه الكبير ، ولهم كل شيء ، فاذا اردت ان تعيش مطمئنا امنا مرتاحا ، لا تعب ولا عناء ولا شقاء ، فعليك ان تركن اليهم ، وتماشيهم ، على ان « لا تحترمهم » .

اما اذا كنت تريد ان تطوح بنفسك الى مهاوي الدمار ، فاعمل على معاكستهم والوقوف لمساويهم بالمرصاد . ولكن قبل الاقدام على ذلك لا تنسى انني حاولت ان اجرب هذا « المهماز » في شواكلهم فكان نصيبي هذا « السقوط الهائل » . اذن فارضخ ، وما ينبئك مثل خبير .

وما كنت اود ان اسمع منك كل ذلك « الاعتذار » عن « مهازلي » ولماذا لا تنسب الي « الهزل » ما دمت تعرف انه « وعاء السم » وما دمت تعرف جيدا ما اضمنه من « خبث » كله نقمة ، وكله سخط تربيا(2) في قرارة نفس ملتاعة مولعة بالهدم والتحطيم ما وجدت الى الهدم والتحطيم سبيلا .

ليس « العيش الجاف هو الذي لا تتخلله اصوات الانس واصوات الجنس اللطيف » كما تتوهم ، وانما هو « عيش هنيء » . فالانس والطرب والصفاء اسماء موجودة في قواميس اللغة ، اما في النفس الحساسة الوثابة فليس لها وجود مادامت هذه البلاد مصابة « بالشلل » في الادارة ، والاخلاق ، والرجال.

ومالك تعقد على « الجنس اللطيف » امالا ، وانت ترى ان « الجنس الخشن » لا رجاء فيه ولا خير فيه .

المراة في هذه البلاد ، يا امين ، مثل الرجل والرجل مثلها ، جهل في جهل ، ومن الصعوبة ان تجني هنالك (3) من ارض نباتها الجهل ، وزرعها الزوان . وارجو ان تجد في عيشك الحالي البعيد عن زخارف التصنع ما ينسيك « الجنسين » وما نرجوه فيهما من هناء .

واذا كنت لم تالف هذا « العيش الجاف » في الماضي ، فعود نفسك عليه . « الانسان ابن العادة » . . . . . .
. . . . . وهي التي سنت « النظام الاجتماعي » . فمن العادات ما هو مقدس عند الامة الفلانية في حين هو مرذول عند غيرها ، ولكن الاعتياد عند هذه جعل ذلك مقدسا ، والاعتياد عند تلك جعل هاتيك مرذولة .

وشبيه صوت النعي اذا م قيس بصوت البشير في كل ناد

أما الشيء الذي يستحق النمو والرعاية فهو « الضمير » ذلك الذي عليه يتوقف الصالح من امورنا والطالح ، والذي يكرم المرء به وبه يهان ، ولكن اولو « الضمائر الحية » مغلوبون على امرهم الان ، ولا بأس بذلك ، فان السعادة ليست في الغلبة وليست هي في التوفيق الى ما يتمناه الانسان ، وانما هي حيث تعيش قريرة ناعمة في جوانب القلب الكبير ، والصدر الواسع الذي لا يضيق بما يتراآى له من شؤون وشجون في هذه الحياة المملوة بالوصب والنصب .

ثق ، وثق كل الثقة ان « الكرامة في الحياة لم تفز على الضعة » وانما الضعة هي الفائزة في كل ازمنة التاريخ الحافل بالاكاذيب . . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

ولماذا تذهب الى ازمنة التاريخ البعيدة وفي التاريخ الحديث ما فيه الكفاية . الم تكن ضعة انور وجمال وطلعت فائزة على كرامة الدولة العثمانية ؟ والم تكن ضعة « المنقذ الاكبر » (4) هي الفائزة على كرامة العرب الذين خسروا بتلك الضعة كل شيء كانوا يرجونه لبلادهم ؟ والم تكن ضعة رجالنا فائزة على كرامة قطرنا ؟

اذن فلماذا تظن خيرا بفوز الكرامة على الضعة ؟ ... الكرامة كانت مهانة ولم تزل كذلك ، والضعة كانت محترمة ولم تزل كذلك ، وعبثا تحاول ان تجد الكرامة فائزة على الضعة في في هذا العصر ، ما لم تتحطم الانظمة العتيقة البالية وتحل محلها الانظمة التي تعرف منزلة الكرامة ، وتعرف منزلة الضعة، وذلك يوم بعيد ، هذا ما اظنه وان بعض ... (5) ... اما كل الظن فاجر ... (6) ...

---

(1) كذا بالالف
(2) المقصود (تربيا) وهو خطأ املائي بسبب السهو .
(3) كتب الهمزة على كرسي الياء .
(4) يقصد الملك حسين بن علي
(5) الورقة ممزقة
(6) الورقة ممزقة

— ٣ —

فزلرباط ٢١-٤-١٩٢٦

اخي الاعز خليل افندي

جائتني جريدة « الفيحاء » وفيها تعليقك عليها ، وقد استنتجت من ذلك التعليق انك غير مرتاح لهذا « النقل » او هذا « الانتقال » . اما انا فقد رايته لا باس به ، واذا كان لابد من « النفي » فمندلي احسن من شهربان بالنسبة الى كثرة الموظفين ، وهم الطبقة الراقية في مثل هذه الامكنة التي شاء الله ان نعيش فيها ، واظن ان اهالي مندلي احسن من اهالي شهربان .

اما المسافة بيني وبينك اصبحت بعيدة فذلك لا يهمني لانني سواء كنت قريبا منك او بعيدا عنك ، في فزلرباط ، ام في مكة ، ام في بغداد ، ام في موسكو ، في الجنة ام في النار ، في اي مكان اكون ، وفي اي مكان تكون ، فالرابطة الروحية المحكمة بيني وبينك تجعلني قريبا منك ، وتجعلك قريبا مني . هذا ما اعتقده فيك ، وهذا ما اعتقده في نفسي ، وان كانت نفسي لا تستحق ان اعتقد فيها شيئا .

تطلب الي ان ازورك في مندلي ، وهذا لا يمكن الان ما دمت موظفا في فزلرباط ، ولكن متى تحولت منها ، وذلك قريب ، يمكنني ان استفيد من ايام الجمعة وازورك زيارة لا كلفة فيها ولا اعتذار عنها ، ولا مجال « للمشاغبين » من اجلها .

قطعت مكاتيبي عن علي جودت بك ، ولم اكتب له بعد ذلك الكتاب الذي اخبرتك به ، وسوف لا اذهب الى بعقوبا ، وقد ذهبت في ثاني يوم العيد الى بغداد فبقيت فيها ستة ايام بدون اجازة ، ورجال الحكومة في بغداد يعلمون انني في بغداد بدون اجازة .

لقد اخذت اتعمد المعاكسة ، ما دامت اعتداراتي لا قيمة لها ، واني واثق من اني سوف لا ابقى اكثر من شهر في هذا اللواء .

يؤسفني جدا مصير علي جودت بك الى هذه النهاية ، اما الخلاف الذي وقع بيني وبينه فلم يطلع عليه احد غيرك . هو « زعلان » مني ولكنه لم يظهر هذا « الزعل » الى غير خيرالدين افندي ، وقد اظهره بصورة بسيطة جدا ، ولكني عرفت جيدا من عدم اجابته على كتابي الاخير انه زعلان بصورة شديدة . مبارك هذا الزعل ما دمت اعرف انني لم ارتكب ذنبا يوجبه .

لست ضعيفا امام هذا الزعل حتى اهتم به ، ولكني آسف لاني لا اود ان اجعل علي جودت بك زعلانا مني بعد ذلك الولاء الصحيح الذي كان بيننا . وآسف لاني سوف اخرج من لواء ديالى وبيني وبين علي جودت بك هذا الخلاف الذي اوجبه مركز الوظيفة الصغيرة ، فلو لم اكن موظفا لما زعل مني علي جودت بك على مسالة اعتقد انني محق فيها ، ولو لم اكن موظفا صغيرا لما قيل عني انني اتجاوز حدود توظيفي .

لا تقطع عني مكاتيبك . وقبل لي المحروس عبدالكريم واخيه جميل وبلغ سلامي الى « الثقيل » الزعلان عوني افندي او حسين عوني افندي . اما كامل افندي فقد صادفته في حالة مزعجة من « السكر » وقد كلمته بحضور عزالدين افندي النقيب ، ولكني لست ادري بماذا كلمته .

اخبر عوني افندي ان « مدير المال يكتب » يبلغه السلام الكثير ، وانني اجتمعت به اجتماعا افلاطونيا كله هناء ، وكله صفاء ، ولعنة الله على « الصادقين » .

. . . . . .

اما عوني وكامل فهما ليس لهما علاقة بتلك الاستفاقة .

ياخابه شلج بيه لبن ملك ! ... جيبه حديدة واجويه لبن ملك ! ياليل ! موتوا الله لا يرحمكم ياكفرة الكتاب .

العبد الفقير الى الله تعالى
والمخلص اخوك
ابراهيم صالح شكر

— ٤ —

فزلرباط ٢٥-٤-١٩٢٦

اخي الاعز خليل افندي

اخذت كتابك اليوم ، اما سفرك الى مندلي ، او تحويلك اليها فاني مرتاح اليه كل الارتياح ، وان اصبحت بعيدا عنك اكثر من ذي قبل ، فان البعد لا عبرة به ما دامت الارواح متقاربة ، والقلوب مرتبطة ، واينما تكون واينما اكون ، فان خليل وابراهيم متصلان اتصالا يكفي لارتياح النفس الشريفة الحساسة منه ، والطمانينة عليه .

ان اهالي مندلي احسن من اهالي شهربان على ما اعلم ، وان كثرة الموظفين في مندلي فيها نوع من التسلية ، وان كنت ارجوك واؤكد عليك رجائي بان تقلل من اختلاطك بهم « ليلا » فانت « ملعون » في « الليل » ولا اريد ان يعرف احد « لعنتك » كما اني اخشى ان تصيب « ضعيفا » في « ضربات يدك » .... فتقضي عليه .

انني ، على كل حال ، منقول الى بغداد في مايس ، واذا كذب علي « اصحاب المعالي » فاني مستقيل في نهاية مايس على كل حال ، ولكني واثق من انهم لا يرضون لي هذا المصير ، وانهم متفقون على نقلي .

لقد بقيت في بغداد ستة ايام لما ذهبت اليها بمناسبة العيد بدون اجازة احد من ذوي « الامر والنهي » في لواء ديالى ، عملت كل نوع من « المشاغبة » و « الاساليب المقنعة » لافهام القوم بانني يجب ان انقل الى بغداد ، وقد ذكروني بامر نقلي الى « الكرادة » يوم لم اقبل به .

ان علي جودت بك لم يزل زعلانا ، واني لم اكتب اليه غير الكتاب الاول الذي اخبرتك به ، ولكن الحالة التي وقعت بيني وبينه لم يعرف بعضها الا خيرالدين افندي العمري والدكتور خياط ، وهو كاتمها ، شانه في كل شيء الكتمان . ولكني يوم يتم امر نقلي الى بغداد سوف امر ببعقوبة ، وهناك اجتهد بان اقنعه باني لم اعمل معه شيئا سيئا ، وان يكن الدكتور خياط وثق بكتابي الخصوصي اكثر من ثقته بالكتاب الرسمي ، فذلك لان خياط وجد في كتابي الحقيقة التي لم يجدها في المخابرة الرسمية التي جرت بين اللواء ومديرية الصحة العامة حول « مسالة مدكور » اهنه الله !

لقد عرفت من الدكتور خياط انه افهم اللواء بان مامور صحة شهربان لم يقصر في وظيفته ، وبما انه حافظ الوظف التابع لادارته من تاثير الدوائر الاخرى ، لذلك هو يفكر بان ينقله الى محل اخر حذرا من وقوع مسالة ثانية تضر هذا الموظف المسكين ، او توجب القال والقيل .

لست استطيع ان ازورك في مندلي ما دامت العلاقة بيني وبين علي جودت بك على هذه الصورة . وفي اول مايس سوف اذهب الى بغداد بدون اجازة طبعا ، وربما بقيت فيها اياما .

ولكني لابد وان ازورك في مندلي بمناسبة نقلي من قزلرباط ، وذلك قريب . . . . . .

. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

اخبر عوني ان « مدير المال يكتب » جاء الى قزلرباط اكثر من عشر مرات ، ذلك شيء يقتله و « يلعن دينه » .

اما «الحاكم بأمر الله في مندلي» كامل افندي فقد صادفته في بغداد مع السيد عزالدين افندي النقيب ايام العيد ليلا ، وكنت في حالة شديدة من « السكر » ولست ادري ماذا قلت له من خير او شر ، وعلى كل حال بلغ سلامي اليهم جميعا .

انني ابارك لك « بقابل افندي » بوست مستر مندلي « عليه السلام » واتمنى لك الكثرة من امثاله ليزيد الله في ثوابك .

اكتب الي دائما من مندلي ، ولا يلهك « البوكر » فيها عن ذلك . وارجو ان تقبل لي المحروسين عبدالكريم وجميل ، واقبلك قبلة اخ تحيل بينك وبين ملاقاته ظروف الحياة ، وجبال الطبيعة ، اخي المحترم .

أخـــوك

ابراهيم صالح شكر

— ٥ —

قزلرباط ١٨-٥-١٩٢٦

اخي الاعز خليل افندي

اخذت كتابك « المختصر » فدلني على كثرة اشغالك ، وفي ثاني يوم استلامه توجهت الى بعقوبا « بمناسبة الجمعة » فبقيت فيها الجمعة والسبت ثم عدت الى « قزلقرط » ليلة الاحد وقد قابلت محمود شكري بك عند عودته من مندلي فابلغني عن استراحتك وعن اطلاعه على بعض « مكاتيبي » اليك .

ان امر تحويلي لم يتم حتى الان بسبب مرض عبدالعزيز المظفر واقامته في « المستشفى » طيلة الاسبوع الماضي ، ومرض عبدالعزيز يسري الى مرض الاعمال في وزارة الداخلية .

ان ملا حبيب يقيم الان في قزلرباط مع عبداللطيف الفارسي، وقد جرى ذكر بطرس فتجاهلت سبب عزله فاخبرني انه نتيجة كتابة « مدير شهربان » كما ان تحويل خليل افندي المعاون الى مندلي كان كذلك ، فضحكت من سخافة هذا الرجل ، وعلمت انها « مشاغبة » كثيرة الشبه « بالمشاغبة » التي دارت حول « وجود ابراهيم سكرانا في محطة شهربان » !!

سلاح الجبناء ذلك ، والجبان من اذا قابلك اظهر لك الود والمحبة والاخلاص حتى اذا غبت عنه عمد الى المخاتلة والتعرض والتفـــرض .

اطلعني سعيد كاتب شعبة قزلرباط على كتاب جاءه من صهره حسين بدى فيه سلام كثير واحترام وافر ، واشواق لا يحصيها عد الى « حضرة الاستاذ الملاذ مدير قزلرباط » فابتسمت ابتسامة صفراء لهذه (.....) التي ظهر بها هذا الرجل منذ علم انني اصبحت « مدير التحرير » .

علمت في بعقوبا ان مظفر تحول الى لواء الديوانية وان « نورالدين العاني » نقل الى مكانه في دلتاوة فباركت بذلك الى محمود شكري بك ، وابارك لك ايضا بهذا « الزميل » الجديد اكثر الله من امثاله في لواء ديالى لئلا يبقى « ج.ج وحده بين امثالك الحمقى والمجانين » .

. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

انني لم اكتب جواب كتاب عوني وربما يعود الى «الزعل» مرة ثانية ، « مبارك » ما دمت انا في بعقوبا « البلد الامين » اما اذا بقيت في قزلرباط فاني يعز علي زعله .

« الحاكم بامر الله » نعم الرجل « لولا الملعونة في عنقها » ومع ذلك بلغه سلامي فامثاله كثيرون في هذا « الوطن العزيز » !!

اخذت تفاصيل « البوكر » الذي لعبته في بلدروز فسرني « فشلك » في تركك اللعب والسفر الى مندلي .

« ابو شوارب » مقطوعة المخابرة بيني وبينه بسبب سفر جمال افندي مدير برق قزلرباط بالاجازة ومجيء مدير برق جديد شرس قليل الحياء ، وقد وقعت لي معه حادثة والمخابرة جارية حوله مع القضاء واللواء ، واسم هذا فوزي افندي .

قبل لي المحروسين عبدالكريم وجميل وابقى سالمـــا لاخيـــك .

ابراهيم صالح شكر

حاشية : الان اخذت كتاب من مظفر يخبرني فيه انه ذاهب الى بغداد للاستقالة وانه مستحيل يذهب الى الديوانية .

— ٦ —

بريد الفضيلة (*)

ابراهيم صالح شكر يتكلم

(بحروفهـــا)

حضرة الفاضل السيد عبدالرزاق الحسني

بعد الاحترام : لقد اطلعني « بريد اليوم » على المقالة الاولى في العدد «٦٨» من جريدتك الغراء وما اشتملت عليه من التعرض لمن آثر الانزواء عن الناس ، وفضل الابتعاد عن هـذه الفوضى الفاشية في وادي الرافدين بارك الله في خيراته !!

والذي التمسه اليك هو ان تثق باني لست « شهيدا » ولست « مشهودا » وانما انا رجل فاضت نفسه بالنقمة على « دعاة السوء » فاعمل مهمازه في شواكلهم فتهيبه الرعاديد ذوو « الماضي الاسود » و « الحاضر المخجل » و «المستقبل الشنيع».

وما زهدت في « مهنة القلم » في هذا الوطن المبارك لانهـا مهنة كاسدة ، وانما لانها عرضة للاهواء التي يثيرها « عبيـد القوة » و « خدمة » « الاشخاص » ولان الحرية فيه مباحة في « حانات الخمور » و « ..... » فقط .

اما حياة التوظيف « فهي بالرغم من خمولها ، وبالرغم من قيودها ورسمياتها » اقل عناء للنفس من مجاراة اشخاص

(*) جريدة «الفضيلة» لصاحبها السيد عبدالرزاق الحسني — السنة ٢ — العدد ٦٩ — كانون الاول ١٩٢٦ ص ٢ .

« الزمن الاخير » اولئك الذين استثمروا غفلة السذج فنعموا منها بالحياة الرغدة الهنيئة .

وخير « للادب في العراق » ان يموت ويموت ذكره من ان يكون « كرة حقيرة » تتقاذفها الارجل التي لا تقوى على الوقوف بدون عكازة . فان ادبا هذه مكانته بين الناس لخير منه «المولون» الذي يجب خنقه ، لان في حياته « عار وفضيحة » .

لهذا ارجو اليك ان تشفق على اولك الذين نفضوا ايديهم من جرائيم هذه « الحرفة الموبوءة » ورضوا بهذه العزلة القاحلة ـ فخمول الذكر في هذه البلاد سلامة ، وهم مغتبطون بها . على ان تتقبل في الختام وافر الاحترام (*) .

المخلص
ابراهيم صالح شكر

ـ ٧ ـ

مصر الاربعاء ١٤ تشرين الثاني ١٩٢٨

عزيزي الاخ خليل افندي

تحية مباركة وسلام بسام : وبعد فقد وصلني كتابك ، وفي طيه كتاب الاخ عبدالوهاب ، فحمدت الله على صحة الجميع . انما وجمت اسفا على خلوتك التي جنحت اليها بعد سفري عن بغداد ، جمعنا الله قريبا على ما لا يحبه من عصيانه ، وعلى ما لا يرضاه من محرماته !! ولا سيما واني الان اكثر منك «فلسفة» في كثير مما انت خبير به من شؤون المعصية ، واسباب الجحود !!

وهل تريد ان تعرف شيئا عن مصر الان ، ام ادعه الى اللقاء ؟ .... ان مصر بلد اوربي اهله يتكلمون باللغة العربية ، وهذا كل ما يمكن ان اقوله لك . اما الحكومة فهي جادة في الطغيان ، معتمدة الارهاق ، وتجد رئيسها يتنقل من بلد الى اخر ، فيجد استقبالا ومهرجانات تقيمها الحكومة نفسها في طريقة للتدليل على ان الامة معه ، والحقيقة ان الامة في المدن والعواصم لا تعرف الحكومة ولا تعرف الوفد ، وانما تعرف الترف واللذاذات ...

اما الوفد فهو محبوب من جميع طبقات الشعب ، ولكنه لا يعمل الا في الارياف والقرى ، وفي غير ذلك لا تسمع له حسا ولا امتا ، ولولا الاحتفال الكبير الذي اقامه امس الثلاثاء بالقرب من « بيت الامة » بمناسبة « عيد الجهاد الوطني » الذي يقيمه سنويا لما تسنى لي الاطلاع على خطباء الوفد المصري وكيفية اجتماعهم ، فقد دعيت الى ذلك ، وقد سررت به لا لانه احتفال ما كنت اتصوره ، وانما لانه جمع اكثر من ثمانية الاف نسمة كانوا يهتفون بحياة الوفد ، وحياة النحاس ، وسقوط الخونة ، ولكنه هتاف لا يتعدى الحناجر ، ولا دليل عليه الا التصفيق المتواصل ، ويعنى ذلك انه لا يتجاوز ضجة الكلام، والعربدة فيه ، وهذا لا يقدم عملا ولا يؤخر فيه ، ولو وجد مثل هذا الاحتفال السياسي في العراق ، وتيسرت فيه مثل ما سمعت من خطب الخطباء في تحدي الحكومة ، لاشتعلت الثورة في العراق ، ولتغير مجرى السياسة فيه .

النحاس باشا خطيب لا بأس به ، ولا سيما اذا سخر . صبري ابو علم من اعضاء الوفد يهز السامعين ، وقد خطب غيرهما خطبا اعتيادية . اما الخطيب الكبير او ميرابو مصر ، او انه خطيب الشرق العربي كله على ما علمت فهو محمد توفيق دياب ، فقد اضحك ثمانية الاف نسمة بما كان يصف به وزارة محمد محمود باشا ، ثم اباح لذلك المجموع ان يستمر في ضحكه ولكنه سرعان ما ارجع ذلك الضحك الى حماسة لم املك معها نفسي من البكاء تاثرا ، وقد وجدته يكهرب النفوس ، ويتلاعب بالعواطف ، مع انه لم يكن اسمه في ضمن خطباء الحفلة ، ولكن الجمهور كان يناديه ان يخطب ، فوقف وخطب ارتجالا باللغة العربية الفصحى الساحرة ، فكان سيد من خطب ، وقد علمت ان سعد زغلول كان مثله كذلك .

وقيل لي ، بهذه المناسبة ، ان خطب سعد كلها بليغة ممتعة ، وذلك ما اعرفه ، ولكنه اذا خطب كان تاثيره ابلغ من خطبه ، فقلت لهم اذا يوجد في مصر شيء اخر سمعته فدهشني ولما حضرته كان اكثر بكثير من سمعي به ، هو صوت « ام كلثوم » فصدقوني . فصوت ام كلثوم الطبيعي غير صوتها على اقراص الفونغراف ، انه صوت الملائكة وكفى .

ام كلثوم قصيرة القامة ، صغيرة الوجه ، سمراء ، دعجاء ، ليست بالمليحة الفاتنة ولا بالقبيحة الممقوتة وانما هي عدان (١) بين ذلك ، ولكنها اذا غنت تركت الناس سكارى بما في صوتها من نبرات ساحرة ، تذهب بوقار السامع ، مهما تعمد الوقار ، وتصنع الحشمة .

تظهر على المسرح في الاسبوع مرة واحدة ، بلباس اسود يستر عنقها وذراعيها ، وفوقه رداء اسود ايضا هو شبيه برداء الراهبات الاسود الذي يلبسهن فوق الجلباب الاسود ، وهكذا لا تجد من ام كلثوم غير وجهها الصغير المدور ، وتلبس في راسها « الكوفية » البيضاء و « العقال المقصب » .

والان دعنا من هذا واسمع : في غد أسافر الى القدس ، ومنها الى شرقي الاردن ، ومنها الى دمشق ، ومن دمشق سوف اكتب اليك طبعا ، اذا فاني انتظر جواب هذا الكتاب في دمشق على ان ترسله بهذا العنوان :

دمشق الشام : بواسطة حسين افندي جميل
في كلية الحقوق ، ثم الى ابراهيم صالح شكر

وسوف لا امكث في طريقي اكثر من اربعة ايام ، لذلك انتظر منك كتابا في دمشق .

لم استطع في هذه المرة ان اكتب الى الاخ عبدالقادر افندي اسماعيل فرجائي اليك ان تبلغه احترامي ، وتطلعه على هذا الكتاب ، وتخبره ان كتابه الاخير وصلني واني سوف اكتب اليه من الشام .

بلغ احترامي الى جميع الاخوان والاصدقاء بلا استثناء .

اقبل عبدالكريم ومصطفى ورياضا ، والله يحفظك لاخيك .

ابراهيم صالح شكر

(*) تعليق الجريدة : « الفضيلة » تتجاسر اليوم بان تنشر رسالة الصحافي الكبير السيد ابراهيم صالح شكر لتقول كلمتها حولها في العدد القادم بالنظر الى وفرة مواد هذا العدد .

(١) الكلمة غير واضحة في الاصل .

ـ ٨ ـ

دمشق ـ الشام ١٧ كانون الاول ١٩٢٨

اخي المحترم خليل افندي

تحية وسلام : وبعد فقد اخذت كتابك الاخير المرسل في البريد السابق ، اما البريد الذي اعقبه فاني لم اخذ منك كتابا، ولم يصل الشام بعد البريد الذي غادر بغداد في نهار الخميس الماضي ، مع ان اليوم الاثنين ، فهل لتاخير كتبك عني سبب غير البريد ، وما اصابه من تشويش في نظامه منذ تسلم سيره حييم نشئال ؟

في بداية العام الميلادي الجديد تصدر « الفرات » حافلة بما يسرك ويسر الاصدقاء ، وان بعثت الحنق والغيظ في صدور الاعداء الاثمين ، فهي سوف لا تغادر صغيرة او كبيرة الا احصتها ، واشارت اليها ، وكذلك ينفجر البركان بعد الضغط ، وكذلك يصول الكريم اذا اضطهد ، وكذلك يكون تاديب الذين لا يخافون الله في الامة والبلاد .

مقدمة « الفرات » هذا عنوانها : الفرات صحيفة الثورة العراقية ، صدرت في النجف عام ١٩٢٠ وتستانف صدورها في دمشق عام ١٩٢٩ والاحتلال الانكليزي ما زال في العراق المستقل ..

المقالة الثانية هذا عنوانها : الانكليز في جزيرة العرب ، قضية المخافر بين نجد والعراق ، المستر كلوب واساليبه في الاستعمار .

عنوان المقالة الثالثة هكذا : الحالة السياسية في العراقية (١) : موقف الوزارة السعودية ، توقف المفاوضات بين بريطانية والعراق .

المقالة الرابعة هذا عنوانها : مهازل الاستقلال الكاذب والاعيب الاستعمار .

٥ ـ المعلوم والمجهول ، فيه كلمة صغيرة عن كل وزير من اعضاء الوزارة الحاضرة .

٦ ـ رؤوس حراب : فيه عشر نبذ ، وهي بدل رؤوس اقلام .

٧ ـ على المكشوف ، من صحف ، صحف الدفتر الاسود ، بقية مقالة : حتروش .

٨ ـ مصر في عهد الدكتار (٢) المزيف

٩ ـ امتصرفية ام امارة ، هي كلمة عن الحالة في شرقي الاردن .

١٠ـ الصهيونية في فلسطين .

١١ـ خلاصة اخبار البلاد العربية .

١٢ـ قصيدة عصماء للاستاذ خيرالدين الزركلي يرثي فيه (٣) العروبة التي خنقتها احقاد ملوك العرب وامراء الجزيرة .

هذا هيكل العدد الاول من « الفرات » وهذه عناوين مقالاته ، واذا طالعته سرك جدا ، فاني احاول ان اجعل منه نموذجا للصحافة في دمشق ، واريد ان اعلم الحكومة العراقية باني لم اكن معها صريحا في « الزمان » والصراحة انما هي في « الفرات » فقط .

* * *

عرفني عن كل شيء يحدث في بغداد ، ولا سيما عن اهلي ، وهل عبدالوهاب صالح شكر الان فيها ، ولا تقطع مكاتيبك عني .

(١) سهوا ويقصد في « العراق »

(٢) سهوا ويقصد « الدكتاتور »

(٣) سهوا ويقصد « فيها »

اطلع عبدالقادر افندي اسماعيل على هذا الكتاب ، واخبرني عنه وعن صحته ، وبلغ محمود احمد وافر سلامي وكذلك الاخوان والاصدقاء .

اقبل عبدالكريم ، ومصطفى ، ورياضا ، والله يحفظك لاخيك .

ابراهيم صالح شكر

حاشية :

لقد انتقلت من اوتيل سنترال الى اوتيل « النزل الملوكي الجديد » فاذكر هذا العنوان اذا كتبت الي ، واخبر به عبدالقادر ، ورفائيل بطي ، وغيرهما ، فاني لم اتمكن الان من الكتابة اليهم لانشغالي بموعد ضروري ، واؤكد عليك اخبارهم بذلك .

ـ ٩ ـ

دمشق ـ الشام ١٧ كانون الثاني ١٩٢٩

اخي العزيز خليل

قبلات واشواق : وبعد فقد حاولت العتب عليك في البريد الماضي ، ولكن ضيق الوقت لم يمكنني منه ، فانقطاع كتبك عني شهرا كاملا يستوجب العتب ، وانت تعلم انني لم اخص كتبي الا بافراد لا يتجاوزون الثلاثة ، وانت في اولهم على ما اعرف .

وقد توهمت حدوث اسباب قضت عليك بذلك ، لعلمي ان الانذال الذين اوصلتهم رعونة الايام ، وطيش الزمن الى التحكم في مقدرات العراق ، تنبهوا الى صلتي بك ، فارغموك على الابتعاد عن مكاتيبي ، او انهم فطنوا الى كتبك فعمدوا الى حجرها في البريد . ومهما كان فان فلقي كان كثيرا .

ارجو ان تكون الان في صحة تامة مما طرا عليك من الزكام ، وارجوا ان تواصلني باخبارك ، وهل انت مرتاح في الدائرة ، وكيف تمضي اوقاتك بعد الدوام ؟

انني حيث احل اشيد بظلك اللطيف ، وروحك الخفيفة ، واذا توفرت لي غبطة مسرة ذكرتك ، وتمنيت لو كنت حاضرها وناعما بافراحها ، ومتع السرور ولذاذة الغبطة هنا موفورة ميسورة ، وهي لا تتطلب جهدا ، ولا تستوجب انفاقا مذكورا .

الحق ، يا اخي ، ان العراق مسكين ، ومسكين للغاية ، فالمجيدي العثماني ، وهو يعادل الربية في قيمته وعدد قروشه ، له مفعول كبير في قضاء الحاجيات والليرة سورية (١) ، وهي ربيتان واربع انات ، كافية لمعيشة عائلة من الطبقة الوسطى في العراق وان كان افراد العائلة ثمانية اشخاص .

في دمشق مسرح افرنجي في « الاوبرا العباسية » يحضره كبار السوريين وموظفو فرنسة وضباطها ، وفيه من الراقصات الافرنسيات ما يمثل لك صورة من مسارح باريس . ولكن اتدري ان الدخول اليه من الثامنة الى الثانية بعد نصف الليل لا يكلف اكثر من ربية واحدة ، واذا اردت الشرب فلا يكلفك ذلك اكثر من ثلاث ربيات . اما في حالة الاسراف الشديد في هذه « الاوبرا » فانه ثمانية ربيات او عشر على الاكثر . المدهش الغريب هنا من يربح يوميا ثلاث ربيات يعد في في صفوف الذين يربحون ثلاثين روبية يوميا في العراق ، ولكن هذا اسعد من ذلك ، لان اسباب الحياة في دمشق رخية رخيصة .

(١) يقصد « الروبة » والسهو واضح .

« الوسيكي »(٢) يأتي من بلاد الانكليز ، وزجاجته في بغداد ثمنها تسع ربيات وعشر انات ، اما ثمن الزجاجة في دمشق فاربع ربيات فقط ، فما اعظم الفرق ولا سيما في بلاد يحكمها الانكليز .

آنتان او ثلاث آنات ـ لا اكثر ـ اذا تفضلتَ بها على خادم امام اي من السوريين يتهمونك بالتبذير ، ويتوهمون انك غني كبير ، ومتفضل خطير !!

هنا كل شيء رخيص سواء اكان ذلك الشيء حلالا ام كان حراما ، فهو رخيص واقل من الرخيص اذا قسته بالعراق ، ـ العراق المدمر الفقير المكدود .

دار عامرة واسعة ، ذات طبقتين وخمس غرف فخمة مع الكهرباء فيها والماء ، وفي احسن احياء دمشق وشوارعها، لا يكون ايجارها السنوي اكثر من عشرين ليرة عثمانية اي انه مائتان ولماني عشرة ربية ، والصناعات النفيسة المتقنة تكفل لك فرش دارك وتأثيثها باحسن السرر والكراسي والخزانات والاثاث الكمالي ، ولا يكلفك ذلك كله اكثر من ثلاثين ليرة عثمانية تدفعها اقساطا في ستة اشهر .

وصناعات دمشق ونقوشها ، سواء على الخشب ، او الحرير ، او النحاس ، او البلور ، من الروائع المدهشة ، والنفائس النادرة ، والرخص العجيب .

ولولا الحواجز الكمركية بين العراق وسورية ، لما وجدت بيتا في العراق الا وفيه شيء من تلك الصناعات القوية المتقنة ، ولكن الحكومة التي تتولى شؤون العراق لا ترى في ذلك خيرا لبضائع الانكليز من جهة ، ولتوفير فروق الاثمان من جهة اخرى ، فهي تشدد في الكمارك فتحرم العراق وسورية من الفائدة المشتركة .

اجواخ ، واقمشة قطن وحرير ، وجواريب ، وفانيلات واربطة « بينبغات » وثياب متنوعة ، وكل ذلك لا تجد فرقا بينه وبين البضائع الاجنبية الا في رخص الثمن وقلة القيمة ، هذا ما عدا الحلويات ، والمصنوعات الاخرى من صياغة ، ونجارة وغيرها مما يصنعه الدمشقيون ويبيعونه رخيصا . فلو فتح الطريق الكمركي بين العراق وسورية ، لربحت سورية ، واستفاد العراق . ففي العراق الرز « التمن » والسمن ، والصوف والمغص والماشية من غنم وبقر ، وكل هذا له سوق رائج في سورية ، واسواق دمشق في حاجة اليه ، ولكن ماتعمل امام مصيبة الكمارك التي وضعتها بين البلدين مصلحةالاستعمار، فقضت بالافلاس والفاقة على هذه الامة المسكينة ، على ان تثق بان مصيبة العراق من هذه الناحية اعظم بكثير مما هي في سورية الان .

يمتاز الدمشقيون بالبشاشة ، وحسن الذوق ، وفرط العناية بترتيب منازلهم . والبخل في ابناء دمشق حدث عنه ولا حرج ، فهو شديد ، وهو متناه في الشدة ، ويعد البخل في بعقوبة والموصل كرما حاتميا اذا قسته ببخل الدمشقيين .

وهنا ارباب الصحف لا يستحون من المتاجرة ، فترى هذا يتبجح بانه تناول من الحكومة ما هذا مقداره ، وترى ذلك يحدثك بانه يتقاضى من وزارة الداخلية كذا راتبا عن جريدته، وترى غيره يقول انه تناول من الانكليز ومن الافرنسيين ، ومن حكومة فيصل ، ولا يستهجن احد منهم ذلك .

وللشباب هنا صوت ، ولهم حركة في الشؤون السياسية ، ويمتاز شباب دمشق على شباب بغداد باشياء كثيرة ، منها جمال الصورة ، وظرف الحديث ، وتفهم الادب ، والاشتغال بالسياسة ، وقد وجدت عند « زعيم الشباب » فخري بك البارودي نائب دمشق ، صورة فوتغرافية « لمعبود الشالجي » فان فخري لما جاء بغداد في عام ١٩٢٦ تصرف الى « عبود الشالجي » وحصل على صورته .

اقبل عبدالكريم ، ومصطفى ، ورياضا ، واسلم على جميع الاصدقاء واهل قهوة شكر كافة والله يحفظك لاخيك

دمشق : النزل الملوكي الجديد

ابراهيم صالح شكر

اخي اكرم (١)

لو كنتُ قطعة من النعيم الرائع لما أمضني تناثرها في مهاوي الجحيم . ولكن هذه الحياة الراكدة جعلت مني قطعة بالية من اثاث عتيق لو كان على شيء من الاتقان لما اهملته المتاحف .

اما رقصة الشيطان أمام معبوده الجائع في اللهب فخداع شرير تزدحم فيه زوبعة كثيفة من دخان مسموم .

اكرم :

ثق اني ارتاح الى صوت الرعد طمعا بصواعق العاصفة ، ثم اني انما اهوى العذاب متى كان بين الامواج الصاخبة او على السحاب الجاهم ، ولكن متى انطفا مصباح الخير في الذين اطمئن اليهم تجهمت لي الحياة واصبحت شريرا .

هي نفسي ، ولست املك الا نفسي ، واذا ماشكوت فاني انما اشكو موضع الاحساس من هذه النفس القلقة المهتاجة . وسلام على اخاء يتأثر بالاشباح ولا يؤثر فيه الواقع .

ابراهيم صالح شكر

---

(٢) يقصد الويسكي . والسهو واضح .

(١) الشاعر المعروف اكرم احمد . وحكاية هذه الرسالةتتلخص في ان المرحوم ابراهيم صالح شكر ، عندما كان يشغل وظيفة قائمقام قضاء الفلوجة ، طاب له السمر في دار صديقه المرحوم اكرم احمد في الرمادي . ولما شبع ابراهيم من السمر رغب في العودة الى الفلوجة وطلب من اكرم ان يرافقه اليها ، فاعتذر الشاعر لاسباب ايضحها لصديقه الاديب ، ولكن ابراهيم لم يقنع بالاسباب وبعث الىصديقه بهذه الرسالة التي نشرت فيما بعد في مجلة « الوادي » البغدادية ـ ٤ كانون الثاني ١٩٤٧ .

مختارات من آثاره
(١)

الام واحزان

ومضـــات

للاستاذ العبقري ابراهيم صالح شكر مذكرات قيمة تتناول الحوادث والاشخاص منذ عام ١٩١٠ حتى اليوم ، وقد توصلنا الى بعض ما يجوز نشره منها في هذه الصحيفة وفي ما يلي مثال من ذلك (١) :

الصريـــع

كان والحياة ناعمة باسمة ، والربيع ممراح فرح ، ينعم الزهر العطر الفياح ، وينعش الطبيعة المتفتحة الاخاذة ، فـاذا به والحياة متجهمة عابسة ، والخريف حانق مكفهر ، والطبيعة ناقمة غاضبة واعاصيرها الهوجاء تعصف بالازاهير ، فتتناثـر الاوراق هنا وهناك ، وهي وجلة شديدة الاصفرار !

وكما يندك الطود الشامخ بقوته ، هكذا هوى وجروحـه فائرة بالدماء ، وكما ينتفض الطير المذبوح ، هكذا كانتانتفاضته من الالم الممض والجرح العميق .

ولما ابى « الشقاء المتكبر » الا تمويه الدمع المسفوح ، فضحه الجلد المضمحل ، فتفجر الاسى من عينيه ، في مضاضة، واي مضاضة هي ، اذا غشيت « الابي الكريم » لوعة لاعجـة لا هوادة فيها ولا اناة !

ان الكفاح في ذهنه كان عنيفا ، رغم البسمات التائهة التي كان يفيض بها وجهه الحزين ، وقد احتدمالكفاح واستعر اواره، فوقع في الحومة ، وآهته ملتهبة ، متصاعدة ، وانته زافـرة متشنجـة !

اما الامل الباسم المحبب ، فقد حطمته الاقدار الهازئـة الساخرة ! اما الرجاء العذب الجميل ، فقد خيبته الاحداث القاسية الساحقة !

فهو الان « ميت » يتجرع غصص الحياة ، وهو الان « جثة تتحرك » ! ذلك هو « الصريع » ويرحم الله الشهداء ! ..

أحـــلام

في الحياة فترة من العمر ، هي كل الحياة ، وهي كـــل العمـــر !

هذه الفترة الغدقة باللذة والجمال ، هي فترة الشباب المفعمة بالامل العذب ، والغبطة الطامية الهانئة !

فاذا اجتاحت الاحداث الساحقة ، هذه الفترة المشتعلة لذة وحنانا ، اقفرت الحياة ، وعادت صورتها الرائعة الباسمة ، صورة قاسية ، متشحة بالاحزان الهادئة ، والآلام المحتبسة !

ان الربيع ينعش النفس بالحياة الدفيقة الدفيئة ، فاذا جاء الخريف الكالح القاتم ، ارتسمت غضون الاحزان في نظرات صامتة بارحة ، واستحالت النفس المرحة الضاحكة ، الـى قطعة مهيضة من اللحم ، ينبجس منها الدم الاسود الحزين !

وبين الربيع والخريف ، فترة قصيرة ، ولكنها كافية لان تجعل من الحياة صورة ساجية للهناءة الصريعة ـ وهكذا كان !

وفي عاطفة مبهمة تلهب القلب وتحرقه وفي جنون صامت يمزق الذهن ويقطعه ، هكذا مرت ومضات الماضي حاملةامال المستقبل، واحلام الشباب !

وبين هذه الاحلام ، وتلك الامال ، حل « الشتاء » القاسي، فحل معه اليأس القاتل ، وهكذا تلاشى الماضي ، واضمحـــل الحاضر وضاع المستقبل !

فياالله من هذه الفجائع ! ...

اللحن الحزين

حنان في قـــوة ، ورقة في قوة ، ونشوة اعقبها انين .

والقلب آلة موسيقية مكتملة الاوتار توقع لحن الالم والانين وتغني انشودة اليأس والجزع .

والروح رهينة الصوت الساحر ، والنغم الحزين ، تصدح به اوتار القلب ، وتنطق بالحانه اصوات الشجو الخـــافت المستعذب .

فالى هذه الاوتار ارهفت السمع عاطفة جياشة وهي تنشد الخلود في الالم ، وتهوى الاحلام في الذكريات ، ثم انها انبل من الشمم في اعماق الابي الكريم !

تلك هي انغام الروح ، وهذه هي عاطفة النفس ، والانسان بدونها ميت لا يستحق الرحمة ، ولا يستوجب الثواب .

أليس كذلك ؟ .. ام ذلك ما يجب ان يكون ؟!

هذا متـــاع

متاع في الحياة ، ان تغمرك الظلمة الدامسة ، وانت عـلى شاطيء النهر تمتص « الزهرة الحمراء » في الثغر الباسم والوجه النضر المورد ، حتى اذا ارتوت النفس العطشى ، رحت تسـمع اللحن الرائع في نغم الطبيعة وتوقيع الامواج !

متاع في الحياة ، ان ترى قطع السحب البيضاء تتهادى على صفحة الافق في مثل شفوف الملائكة ، حتى اذا نعمت منها بلذة النظر ، رحت في تلك العزلة الواجفة تنعم الروح الجائع «بالغذاء المقدس » وهو بين همسات الحب الكامن ، ورنين القبل الريانة !

متاع في الحياة ، ان يختلط النسيم المعطربخفيف «الدوحة الباسقة » وانت في اكنافها متنعش الفؤاد ، ترى الشفاه تمتص الهناء المترع ، وافياء الغصون تداعب في امراحه ، حتى اذا اخذك السحر في ذلك السكون الجميل ، رحت تنشد الاحلام الذاهلة بين يقظة الحب الملح وهجعة اليأس الساحق !

* * *

وهل نعمت باليد الناعمة اللطيفة وهي تدلك الجســـم المتعـــب ؟ ...

هكذا شعرت باللذة امام الموج الساحر وفي ظلال « الدوحة الباسقة » ، ولكنه متاع قليل ... جاء بعد لوعة ممضة ، هـي في عنف الالم الاخرس ! ...

* * *

ان شعاع المنى ، يغشى صمت الاسى ، ويمزق ضبـــاب الاحزان ، وان بسمة الرجاء تنعش النفس وتبهج الروح .

وفي الحياة لحظات هي كل العمر ، وهي كل الحياة .

وهكذا كان المتاع القليل في اللحظة القصيرة ! ...

(١) مجلة « الوميض » البغدادية ـ السنة الاولى ـ العدد ١ ـ تشرين الثاني ١٩٣٠ ص ٤ ، والعدد ٢ الصادر في ٥ كانون الثاني ١٩٣٠ ص ٤ ، والعدد ٣ الصادر في ٢٤ كانون الاول ١٩٣٠ ص ٤ .

الفقيد

مسكين هذا الذي يدعونه « بالانسان » فقد خبر جانبا من الحياة ، فاراد ان يعرف الجانب الاخر ، فاشرف على الموت وهو يحتضر .

وبينما هو يمشي الى الفناء وئيدا ، شعر بالبرودة تتمشى في جسمه ، وبالارتباك يعتور افكاره ، وسمع في تضاعيف الغموض بكاء الملتفين حوله ، ثم بدات ذاكرته تخونه ، وراح ماضيه يفر الى الخفاء ، وهكذا مات !

لم يجد في الموت شيئا جديدا ، وانما وجد نفسه ضعيفا لا صلة له بالعالم . سمع ولولة مبهمة ، هي بكاء اهله وذويه ، فاراد النطق فما استطاع ، ثم غمره السكون ولا شاء العدم .

وبعد لحظة من لحظات الزمن ، لامست روحه الشاردة التائهة ، هزة مرتبكة ، أعادت اليه الحياة ، فاذا هي انين خافت ، واذا هو لا يعلم عن رقدته الخالية شيئا وانما شعر بيديه تختبط بدعائم مهد وثير الفراش ، وسمع صوتا حنونا يقول : « ما شاء الله .. » انه « طفل قوي ... » .

ثم سمع صوتا اخر يقول : لماذا يبكي ؟ .. اجائع هو ؟... اذن اعطيه ثدييك ... فهو مولود مبارك !...

وهذا المولود المبارك الذي نبتهج به اليوم ، هو « الفقيد » العزيز الذي بكيناه بالامس ، وقد ودعناه بالعبرات الى اللحد ، فاذا بنا نستقبله بالمسرات في المهد ، وهكذا دواليك !

ولكن السعادتنا كان ذلك ام لشقائنا ؟ ...

اجب نفسك ولا تنسى ان السعادة والشقاء لابد منهما في الحياة ، وصور الحياة هكذا يداولها ربك وهو على ما يشاء قدير ! ...

ضحية

في مكامن القلب ، جرح نفار ، وقرحة دامية !

وفي طيات الروح ، لوعة ممضة وانين خافت !

وفي اعماق النفس اسى عنيف وشجن راعب !

ولكن .... في صفاء السماء ، وفي اسداف الليل ، وفي بلالة النسيم ، ضرب من الجمال لا يلمس وانما يستشفه الاحساس المرهف ، فيحن اليه ويحبو !

وثمة ساهد محتبس العبرة ، يضطرب في احشاء الليل ، فاذا غمره السكون الساهم ، راح ينشد العزاء في هذا الامتاع الرقيق ، فاذا هو يستمريء الجمال في هذه الصورة الاخاذة !

تلك ملهاة متواضعة بريئة ، ولكنها مثيرة حافزة ، تبتعث الشجن ، وتهز الارواح ، في اطراقة مليئة بالاسى الكئيب ، والحزن الصامت !

وخلجات الالم اللذ ، انما هي في العزلة المطرقة !

وهمسات الاسى الرضي انما هي في اكنان السكون !

وفي الليل العابس ، تنساب الذكريات في غضون هدوء رائع يشرق له وجه الالهام فيغذي العاطفة المبهمة ، وهكذا ينعم الروح الجائع « بالغذاء المقدس » !

* * *

وثمة « تحفة الطبيعة » تخطر في مثل « الطيف » الناعم ولكنها مفعمة بالكآبة الساجية ، كانها قطعة من قلب متفتح الجروح !

لا .... بل هي فلذة كبد امضته الاحزان !

لا .... بل هي خلاصة « نفسين » هما اللذة الغدقة الوادعة والشقاء التاعس المرير !

وهذا « الطيف » الهائل الروعة انما هو « تحفة الطبيعة » وهي تتعدى « الحدود » القائمة وتتحدى « الرسوم » المالوفة !

اذن فهو « طيف » الحب المشترك الدفين . وظل الهوى الجامح العنيف ، فاذا اقتحمته الابصار ، وتخطته العيون ، فلان ملامحه الفاتنة ، تنم عليه وتشير اليه ، وهو فيها يتراوح بين لذة الماضي والم الحاضر ، وتجهم المستقبل ، فهو اللذة والالم ، اللذة الراحلة والالم المقيم !

اما بسماته العذاب فانما هي « لبهيم » ظنه اباه وما هو بابيه وانما هو « بومة » في وكر ، تحتضنه شجرة ، اغصانها لدنة مورقة ، وثمارها نكهة طيبة !

واما قبلات الاب الثاكل فانما هي محمومة لاهبة . ولكنه يرسلها في نسمات الليل وانفاس الصبح الى الوجه النضر المورد !

الاول « ضحية مقدسة » والثاني « طفل مفقود » !

ويرحم الله « الاثنين » !! ..

الشهداء

من اوصال الشهداء ، واشلاء الضحايا يتكون السماد المقدس لنبت الحرية وغرس الاستقلال !

وفي قبور الاحرار ونعوش الاباة يستقر الهدى ويشع النور لهداية الامم وانارة الشعوب !

وعلى اعواد المشانق وجماجم الابرار تقوم الامجاد وتؤسس الممالك !

اذن فالشهيد لا ينطفيء فيه نور الحياة وان غيبت جثمانه ظلمات القبر !

اما الشعب اليقظ الناشط الى حقه في الحياة فانه لا يموت ما دام فيه من يموتون لحياته وفي سبيل حريته !

والكرامة الكامنة في الضمير الحي لا تقوى على ان تسمع انين الحق وآهات الشرف ، وانما هي تستقبل « ارجوحة الموت » بثغر باسم وقلب جريء .

وفي الموت فقط .... حياة الشعب المرهق المعذب !

وفي الموت فقط ... تسمو الامم المستضعفة الى صفوف الامم القوية والشعوب المستقلة !

(٢)

رؤوس اقلام

مرض عبدالمجيد الشاوي(*)

منذ مدة غير قصيرة والدعابة الحلوة اللذيذة ، والملحة الطريفة النادرة ، والادب الفض الرائع يلازم المستشفى لمرض احدق بصاحبه ، وما هو الا معالي عبدالمجيد بك الشاوي .

والنادر في مرض « شيخ الشباب النابه » ان « الواهمة » وهي نتيجة الضعف الاعتيادي في المرضى قد زينت له الخوف من مرضه . وما خوفه من نتيجة المرض الطبيعية ، فقد عرفناه

(*) جريدة « الزمان » السنة الاولى العدد ٥-٢٩ تموز ١٩٢٧ ص ٢ - الفقرة رقم -١-

يسخر منها ، وانما هو يخاف من ان تغيب عنه هذه « المهازل » التي يقوم بها « ابطال اخر زمان » فيحرم من لذة الضحك عليها ، والعبث بها .

وهو من اجل ذلك يتجنب الان « الاكل » الا اذا اضطر اليه ، ويبتعد عن « الشرب » الا اذا كان من « الماء القراح » ويلازم « السرير » الا اذا كان « المشي » ضروريا .

اما مجلسه المملوء طرفا نادرة وادبا جما فقد استعاض عنه « بزجاجات الدواء » و « وصفات الاطباء » وتلكهي الخسارة الهائلة .

على رسلك « يا ابا سعدون » فالماء انما يقتصر على «شربه» اولئك الذين عرفتهم فما عرفت فيهم « ادبا » وما توسمت فيهم « عقلا » وما شممت فيهم « شمما » ثم وجدتهم على غفلة « يتزعمون » !

و « الدواء » انما يهتم به سواك خشية ان ينهكهم «المرض» فتنزوي عن الناس « الاعيبهم » الصبيانية المضحكة ! ...

و « زجاجات الاطباء » انما يدور البحث عليها في مجالس « مرضى الاذواق » اما انت فحرب على هذه المجالس ، اذن فدع « الواهمة » وخل عنك وساوس المرض ، وحدثنا بالله عليك عن « المستعربين » في هذه الايام . واصغ الطبيب اذا طلب اليك السكوت بحجة ان الحديث « يضر صحتك » ولك من « الحصانة النيابية » ما يرد عنك « الشكوى » فالمجلس قريبة دورته الثالثة .

لقد قيل لي انك تزعم ان بعضا من « المستعربين » اليوم كانوا « مستتركين » بالامس ، وكان احدهم يزعم انه «ارضروملي» والاخر « انقروي » وغيره « قسطموني » وسواه « ازميرلي »، حتى اذا زالت دولة الترك في العراق ، واصبحت حكومة عربية، اصبح فجاة هذا « يشجبي » وذلك « يعربي » وغيره « مضري » وسواه « عدناني » .

ثم قيل لي انك تنكر على هؤلاء تذبذبهم ، وتزعم انهم متقلبون حتى في « النسب » منافقون حتى في « صلة الاباء » .

وقد قيل لي انك تعجب « بشلومو قحطان » لان « قحطانيته » لم تغيرها نقمة الترك على العرب ، ولم يزعزعها بطش الاتحاديين القحطانيين ، وانما ظلت « قحطانية » صافية خالصة في كل من العهد التركي والعهد الانكليزي ، وهذا العهد المبارك .

اصحيح ذلك الزعم « ياابا سعدون » ؟ .... اذن فلماذا تتمنى لو كنت من « غير العرب » في عهد العروبة ؟ ....

الانك وجدت الترك « يستعربون » ؟ .... ام لانك وجدت « النور » او « الكاولية » يندسون في العرب ، ويزعمون انهم من « احفاد قحطان » او « بقايا عدنان » ؟ ..

اذلك ما زهدك في العرب ؟ .... انك اذن لمتعفف آسف ، وانا ايضا معك لاسفون ، ولكن ما العمل اذا كان و « قانون الجنسية العراقية » يبيح ذلك الحق ؟ .. وما الحيلة اذا كان العرب امة متغلب عليها ضعف الذاكرة ، وسرعة نسيان الماضي ؟.. اغير « الحوقلة » تفيد ؟ ...

اذن فلا حول ولا قوة !! ....

الثناء على بطولة عزيز علي المصري(*)

لقد اخذت كتابا « خصوصيا » في « البريد الداخلي » من القائم مقام العسكري المتقاعد قاسم راجي بك ، يزعم فيه انني اديت ما علي من الواجب « لبطل الفكرة العربية » عزيز علي بك المصري ، ويزعم انني استحق الشكر على ذلك .

واذا كان هذا كل ما علي وعلى غيري من الواجب لعزيز علي بك ، فما اقل واجباتنا نحو الافذاذ من «ابطال امتنا» وما احقر شعورنا بالواجب ، وما اصغر ما نستحق عليه الشكر .

لعزيز علي حق مقدس على كل من ينبض قلبه بحب العرب، وكل من شعر بانه عربي ، فاذا ما قلت انا او حدثت انت عن عزيز فليس معنى ذلك انني او انت قمنا بما علينامن الحق لعزيز، او ادينا واجبنا نحوه .

ان عزيزا يعيش الان مهملا في مصر ، فما عملنا له حتى الان ؟ ...

وان عزيزا بدد ثروته في تنمية الروح القومي فما عملنا لارجاع بعض ما يعيش به من تلك الثروة المبددة ؟ ...

وان عزيزا ما خلق ليعيش بعيدا عن اخوانه فما عمل اخوانه ليجعلوه قريبا منهم ؟ ...

اذا كان الثناء على بطولة عزيز هو واجبنا نحوه ، فلا كان هذا الواجب ، ولا عاش عارفوه ! ...

* * *

الاقلام المأجورة(*)

واذا كانت هناك « اقلام مأجورة » فجولانها انما هو في غير هذا الميدان ، ومجالها انما هو في غير « جريدة الزمان »

فهذه الجريدة انما صدرت للتشهير بمن يلبس في كل يوم لباسا ، وللحط من « الكرامات الكاذبة » وللتنديد بمن يريد بالبلاد سوءا من هواة « الكراسي » وغواة « المناصب » و«دعاة الاجانب » !

اما «الاقلام المأجورة» فهي التي كتبت « المضابط » لترشيح السر برسي كوكس ملكا على العراق ، وهي التي كانت تكتب الى السلطة الانكليزية عن الحالة في « النجف » لما حاصر الانكليز النجف بعد قتل الحاكم السياسي « مرشل » وهي التي اصدرت جريدة « دار السلام » بدراهم « الحاكم الملكي العام » وهي التي كانت تكتب عن مواطن الضعف في « الثورة العراقية » لتطلع عليها الحكومة المحتلة ، وهي التي تنفث « الروح الفارسية » وتبث في البلاد اسباب الشقاء ، ومقدمات الدمار .

تلك هي « الاقلام المأجورة » اما «الاقلام » التي تكتب في هذه الجريدة ، فانما هي تدعو الى « توحيد الكلمة » و « نبذ التفريق » والابتعاد عما يحط من كرامة البلاد ، ويضر بسمعة الامة .

واذا كانت «الاقلام» التي تخط ذلك كله يسمونها «مأجورة» فاني لمرحب بهذه الاقلام ، واني لداع الى ما تكتبه ، على ان يجدوا « لاقلامهم » تلك اسما اخر ، ليفرق الناس بين الاثنين ، ام هم جاهلون ؟ ...

(*) جريدة « الزمان » السنة الاولى العدد ٩-١٢ آب ١٩٢٧ ص ٢ ـ الفقرة رقم ـ١ـ

(*) جريدة « الزمان » السنة الاولى العدد ١١-١٩ آب ١٩٢٧ ص ٢ ـ الفقرة رقم ـ٤ـ

تقي الدين(*)

هذه صفحات ليست بالسياسية ولا بالتاريخية ولا بالادبية ولكنها تحوي كل الوان السياسة وعناصر التاريخ تزينها المسحة الادبية والاسلوب الرائع اللذين عرفهما القراء في الاستاذ الكبير ابراهيم صالح شكر .

و « تقي الدين » رجل تولى ولاية بغداد مرتين : الاولى كان فيها خلفا لناقم باشا الكبير وسلفالمدحت باشا ، والثانية كان فيها خلفا لمصطفى عاصم باشا . وله في هاتين المرتين مغامرات جمة في الحب والحياة والجمال والسياسة ، ننشرها تباعا في هذه الجريدة بقلم الاستاذ المعلوف حياة وقوة :

هذه « عمامة بيضاء » ناصعةالبياض كانها السريرةالطاهرة، في الملاك الكريم ، او الطفل المعصوم ، فهي سمت الابرار ، من ائمة الدين ، وعلماء الاسلام ، او هي « تاج العروبة » الضائع ، بين مهامه الماضي واطواء التاريخ « فالعمائم تيجان العـرب » يوم كانت هذه « القبعات » رمز الاذلاء ، وعلامة المغلوبين !

وهذا فتى مبتسم الفتوة غضير الشباب يمرح في صباحة متالقة ، وجمال جذاب ، فقد تفتحت له الحياة في « الشهباء » عاصمة « سيف الدولة » فنعم منها بالاحساس الفذق الدقيق ، والعواطف المليئة بمغابط اللذة ، ومباهج الاحلام !

ولكنه وهو من اسرة تحمل « لواء الدين » بين الراسخين في العلم ، رضي لنفسه الشاعرة الحساسة ان تظهر غير الـذي تضمر ، فتستسيغ الارغام على « طلب العلم » و « ومظاهـر التقى » فاذا هو « يتعبد الله » في « حلقات الذكر » ومحاريب الصلاة ، وهو انما يتفهم هذه العبادة ، ويخلص لها ، اذا كانت في مفاتن الطبيعة ، وصور الجمال !

وهكذا جاهر الناس بالزهد واسباب الايمان ، وطوى في صدره الحرام وماضي الحرام ، مما ياباه الدين ، ويحرمه الشرع ويستوجب العقوبة والنكال !

اما « عمامته » تلك ، فانها على بياضها الناصع ، كـانت مطوية على حالك الاثم ومدلهم الذنوب ، وهو انما كورها على راسه الضخم ليشبع رغبة الاسرة ، ويضل الغفل ، فان هواة « الاثار المطمورة » وجدوا فيها « تاج الاعاريب » فارتضى لهـم الضلة والخطل ، وتطامن الى رغائب النزوات ، يسرف فيهـا ويستهتـر !

* * *

هذا الفتى الناعم الماخوذ بما في الحياة من سحر وفتنة ، انما هو « تقي الدين » افندي ، فاذا امعنت النظر وارهفـت السمع ، رايت في « صورته » الروعة الجذابة ، وسمعت من اخباره اللذ الطريف !

قامة ربعة بين طوال القامة وقصار الاجسام ، ولكنهـا غضة الاملود ، كانها الغصن المورق النضير ، لولا انها تنوء بهامة كبيرة ، في مثل ضخامة الدماغ الجبار !

وثمة جبين وضاح ، في مثل بسمة الفجـر ، واشراقـة الشمس ، على وجه في مثل استدارة القمر ، ناعم البشرة،ملتمع الرواء ، تشع فيه عينان هما الذكاء الساطع والفطنة الغراء !

وهناك فم في مثل الفحوانة الحقل ، يعبق بانفاس الصبح ، واعطار الربيع ، في شفتين هما من اوراق الورد ، في منتهـى الروعة ، وغاية الازدهار !

فاذا انضمت الى هذا وذاك رجولة صادقة طماحة ، تنم عليها شعور شقراء في « لحية كثة » يتماوج فيها « جلال العلم » ووقار « الشيوخ » فاي الناس هذا الذي يصطنع « التقـوى » ليدفن فيها مناعم العيش ، ومتع الحياة ؟!

وهذا التبلد الذاهل الذي يتعمده ، في خداع الجمهور ، انما ينطوي على ادق الاحساس ، وارق الشعور ، ولكنه وهو من « حملة العلم » وحفظة الكتاب ، مرغم على اضمار نبضاتالقلب، وهي في مقتبل العمر وغضارة الشباب ، جامحة عنيفـة ، لا تصانع بالهوادة والاناة ، فكيف اذا اريد لها الكتمان والتستر ؟!

* * *

ان الاسرة التي اروت هذه النبتة الفضة الزاهرة ، وانمت غرسها الطيب المبارك ، هي التي طبعت « تقي الدين » افندي على هذا الغرار الكئيب ، فهي لا تقوى على تفهـم خلجـات النفوس ، وما ينبض في حنايا الصدور ، وانما الذي تتفهمه لا يتعدى حدود الصوم والصلاة ، والحج والزكاة ، وشهادة ان لا اله الا الله ، وان محمدا عبده ورسوله .

وقد تجاوز ذلك فتتفهم ما اشتملت عليه كتب « الطهارة » و « الحيض » و « النفاس » و « ناقضات الوضوء » و «موجبات الغسل » وما الى ذلك من « اسرار الفقه » ونكاته ، فهي اسرة تحمل « لواء الدين » وتعمل في سبيله ، وليس لها في غير الدين، فكرة خاطئة ، او راي صائب !

اما ان تقيالدين افندي يتمسك « بطابع الاسرة » ويحرص على صياغة بين الناس ، في الفينة التي يتراكـض فيها وراء « المحرمات » وقاصمات الظهور ، فذلك شرك متماسك الاطراف، يمده لفلة الاسرة ، وخداع الدهماء ، فيصطاد به « الحـرام اللذ » في منصب من مناصب العلم يفدق عليه رغادة العيش ، وهناءة النعيم ، فهو « الفقيه الافضل » وله في مناصب الدولة، ما يضمن « مستقبل الشهوات » !

وهذا الطماح الذي يوسوس في صدره ، ويساور احلامه الناعمة الباسمة ، لم يعد غامضا مبهم الغموض ، او خيـالا تتقاذفه الريب والشكوك ، فان العلم والتقى والصلاح مهـد لاسرته الصلات الوثقى « بصاحب السماحة » شيخ الاسلامعارف حكمة ، وقد اوصى بها « الوالي » واصف باشا ، فحدب عليها وخصها بشيء من العناية والاعزاز ، الى ان شغر « منصـب الافتاء » في حلب فرشح له « فتى الاسرة » الناعم الطماح ، فحمد له « شيخ الاسلام » ذلك ، وسارع بالموافقة عليه ، فاذا تقي الدين افندي صاحب الفضيلة « مفتيالولاية » وهو بعد لميجاوز الثامنة والعشرين ، من حياة هانئة متفتحة ، تستفزها الاطراب، وتتملكها الاعابيث ، فتهرع في « اقتناص اللذة » الى اقصىحدود الشطط والاستهتار !

وقد تململ اشياخ الفقه ، واساطين العلم ، من ان يصير « الافتاء » الى الفتوة المهتاجة ، تصانع الوقار ، وتسكن الـى اعابيث اللذة ، تلهو بها وتلعب ، ولكن ماذا يعمل الاشـيـاخ والعلماء ، و « عطوفة الوالي » يريد ذلك ، و « مولانا » شيخ الاسلام يحبذه ويؤيده ؟!

ايفصحون عن هذه النقمة ، فيغضبون بها واصف باشا ، ام يغضون بها الى عارف حكمة افندي فيخسرون عطفه ، ام يرجعون الى الله بالحوقلة والترجيع والاستغفار ؟! ام ماذا ؟!

* * *

(*) جريدة « الاستقلال » السنة ١٣ الاعداد ١٧١٢ في ٨ تموز ١٩٣٢ ، ١٧١٣ في ١٠ تموز ١٩٣٢ ، ١٧١٤ في ١١ تمـوز ١٩٣٢ ، ١٧١٥ في ١٢ تموز ١٩٣٢ ــ ١٧١٦ في ١٣ تمـوز ١٩٣٢ ، ١٧١٧ في ١٤ تموز ١٩٣٢ .

وبين تبرم الاشياخ ، وتجهم العلماء ، وضجر الكهول ، تيقظت عناصر الزهو في « فتى الافتاء » فصانعها برصانة المتامل الرزين ، ولكنه لم يخفف من حدتها ، في اصطناع اللذة ، وما هو جميل او فاتن !

ومنصب الافتاء رحب الجاه ، وفير البركات ، وقد سهل لتقي‌الدين افندي الاستمتاع بما يصبو اليه العقل الملهم ، فهو الان يحلق في آفاق الدين ، ويتحذلق في شؤون الفتوى ، ليسف في هداة الليل وسكون الناس ، الى « احضان السلوى » فيمتص براعم الورد ، في صدور العذارى ، وشفاه الحسان ، او هو الان يداجي الجمهور بالهدوء المصطنع ، ليهرع في نشوة الثمل المترنح الى ما ينعش النفس في هزة الحب العاصف الذي لا يتفهم اقيسة العقل ، واحكام المنطق !

ان ظواهر « المفتي » لا صلة لها ببواطنه ، ولكنه انما يستغل مكانة العلم ومجد المنصب ، يستنفد بهما الاحساس النامي ، والشعور الفياض ، فيمضي في فورة الصبا الى ما يضمن مسرات العيش ، وشهوات الحياة ، وهو يجنح اليهما في شره يبتعث‌الاقاويل ، لولا انه في منجاة منها منذ تعهده «الوالي» في حلب ، وعضده « شيخ الاسلام » في « الباب العالي » وهو الفتى اللبق المتوثب الذي لا ياخذ بمجابهة الواقع ، ومقارعة الاحداث ، فله في المغامرات العنيفة ولع ملح ، وهوى مستحكم .

* * *

الانسان ابن العصر الذي يعيش فيه ، فاذا سبق الانسان هذا العصر ، فهو العبقري الجبار الذي يتخطى العصور والاجيال ، وكذلك تقي الدين افندي ، فانه وهو في نشوة الحب والجمال ، عرف كيف يمشي في غمار الناس ، ويشق له الطريق الآمن المطمئن ، فيبهج الجمهور بتحية المؤمن المتفضل ، وبسمة الابهة المتواضعة ، والمنصب الوقور !

ان « الوالي » واصف باشا ، رجل ضعيف الخبرة ، قليل التجارب ، وقد وجد في « مفتي الولاية » قوة في الذهن ونشاطا في العزم ، فاتخذ منه الصديق الحاذق ، والصفي الحصيف ، واخذ رأيه في تدبير البلد ، وادارة الحكم ، الى ان حلت سنة ١٢٦٧ هـ = ١٨٥٣م فاذا اشباح الفتنة تتحرك بين ابناء الوطن الواحد ، والدولة الواحدة ، بين المسلمين في حلب والمسيحيين فيها ، ولكن « المفتي » الجريء صمد لها ، واخذها بالليـن والمسايرة ، لولا ان التعصب في «الوالي» كان يعمل على ايقاظها، في جهامة وباس ، الى ان وقعت الواقعة ، وحل‌الخطب الداهم، فانحلت اواصر الولاء ، بين الصديق وصديقه،وانقلب «الوالي» عدوا يرى في « المفتي » الد الاعداء واشد الخصوم !

وفي هذه الفترة العصيبة ، زخرت حياة تقي‌الدين افندي بالصراع ، فجاز عصره ، في صوفية وخيال ، الى ما يتطلبه العدل من صيانة الارواح ، وحفظ النفوس ، وحقن الدماء ، فاسمع « الباب العالي » صوت الانسانية الصارخ ، والح بالتدليل على الشر الذي تعتلج به نفس الوالي واصف باشا ، فاستمع « الباب العالي » اليه ، وتدارك الفتنة العميـاء ، « بسفير » الدولة العثمانية في لندن محمد باشا القبرصلي ، وهو زميل الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا في الحكمة الهادئة والعقل الجريء ، والحزم الصارم !

* * *

جاء « القبرصلي باشا » حلب وشرر الفتنة يتطاير في الجوانب والجهات ، والنفوس الغضاب تجيش بالحقدوالانتقام، فاستعان على هذه وتلك ، باناة الحليم ، وحكمة الرجل الخبير فاذا الخير يملأ البلد الثائر ، ويحطم الشر في جوانبه المتناحرة ، ولكنه وهو يخطو في الاصلاح الى الستين من حياة التجـارب والعظات ، راى تقي الدين افندي يتهادى في مشية المرح‌الباسم، ليطل على الثـلاثين ، من حيـاة تتعشـق الفجـر والربيع ، وتنشد الجمال في لذة دفيقة ، وحب مضطرم ، فحدر الفتوة الظماى الى مجهول ، تهرول في تطلابه صائحة متلهفة ، فهي في سن الشباب ثائرة الاعصاب ، مشبوبة العواطف،يسكرها الحب والهوى ، ويسحرها الجمال ، في الاضواء والظلال ، والصور والالوان ، ولكن « الافتاء » منصب غليظ الطبع لايرى خفقة القلب وتموج الدمع ، ولا يسمع انين الروح ولوعـة الذكريات ، ثم انه لا يعذر على هذا وذاك ، وهكذا كان !

فان صاحب الدولة محمد باشا القبرصلي كتب الى الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا يطلب اليه فصل تقي‌الدين افندي من « افتاء حلب » لامور تبسط في بعضها ، وطوى الكثير منها ، رحمة بالفتى الطرير ، تعتصره الزواجر ، فتحطم في نفسـه ، مواطن الزهو ، ومنابت الهناء !

و « القبرصلي باشا » ، اذا تكلم ، استمع «الباب العالي» اليه واصغت اسماع رجال الدولة ، وانطاب الحكم ، واذا طلب الى الصدر الاعظم شيئا ، لبى مصطفى رشيد باشا ذلـك الطلب ، كبر الشيء فيه ام صغر !

وهو الان يطلب فصل تقي‌الدين افندي من « افتاء حلب » لامور مبهمة غامضة ، اذا اتضحت فهي لا تتعدى « حداثـة السن » و « غرور الشباب » وما اليها مما لا يستوجب الفصل، ولا يستحق الاهتمام !

اجل ان الصدر الاعظم لم يجد في طلب « القبرصلي باشا » ما يسوغ فصل « المفتي » تقي‌الدين افندي ، ولكن « القبرصلي باشا » وهو يريد هذا الفصل فمن واجبه ان يلتمس الى « شيخ الاسلام » عارف حكمة افندي اجابة الطلب وتحقيـق الرغبـة .

وقد عمل مصطفى رشيد باشـا ، ما يمكن في الرجـاء والالتماس ، ولكن « المشيخة الاسلامية » ابت ذلك ، فهـي انما اسندت « منصب الافتاء » الى تقي‌الدين افندي ، لا لحداثة السن او غرور الشباب ، ففي الدولة العثمانية احـداث كثيرون ، يتملكهم الزهو والغرور ، ولكنهم لا يصلحون «للافتاء» او الاحاطة بما يلزم « للمفتي » من علم وتقى ، وفيها كذلـك اشياخ بيضت شعورهم السنون ، وغمرهم التواضع ولـين الجانب ، ولكنهم « يتشرفون » بالاصغاء الى تقي‌الدين افندي اذا تحدث ويتبركون « بلثم انامله » اذا مدها لهم ، فهم دونه بمراحل كثيرة ، وهو فوقهم بما لا يستطيعون اللحاق بـه ، او السمو اليه !

ان « شيخ الاسلام » عارف حكمة افندي ، على بينة من ان « هبة الله » لا صلة لها باعمار الناس ، وان « منصب الافتاء » في حلب ، انما اسند الى « مواهب الله » الماثلة في غزارة العلم، وسعة الاطلاع على « مكنون الدين » و « اسرار الشرع » فـان تقي‌الدين افندي من اسرة رفيعة المنار ، واضحة المعالم ، كثيرة العلماء ، وهو فرع الشجرة المباركة ، فمن الاثم « حرمـان المؤمنين » من « مواهبه » وفيض بركاته !

وهكذا تمسك « شيخ الاسلام » « بمفتي حلب » وحرص عليه من وساوس « القبرصلي باشا » فكتب الى الصدر الاعظم، يابى عليه فصل تقي‌الدين ويدله على علو كعبه بين اشـياخ الدين ، وائمة الشرع ، فلم يجد الصدر الاعظم بدا من الكتابة الى « القبرصلي باشا » يبسط فيها الواقـع ، ويحمله على

الاقتناع بوجاهة ما اشار اليه « صاحب السماحة » عارف حكمة !

* * *

ما هذا ؟ ... أيطلب « القبرصلي باشا » فصل « المفتي » تقي‌الدين ، ويرد الصدر الاعظم مصطفى رشيد طلبه ؟ ... وهل بلغ « القبرصلي باشا » مبلغ اضاعة النفوذ في « الباب العالي » حتى يستطيع « شيخ الاسلام » مناقشته في صحة ما يريد وما لا يريد ؟ ...

ان « عزل المفتي » شيء تافه ، لا يستحق الاخذ والرد ، فهل اصبح لا يستطيع حتى الشيء التافه ؟ .. وما قيمة « الثقة » الكبيرة التي يخصه بها السلطان عبدالمجيد اذا هو لا يقوى حتى ولا على عزل المفتي ؟ ...

وهكذا ثارت ثائرة « القبرصلي باشا » وتملكته الحدة النافعة ، فكتب الى الصدر الاعظم ، يلح عليه في عزل تقي‌الدين، ويقرع « شيخ الاسلام » على عنايته بالسخف والهراء ، وانه اذا اصر على العناد في ذلك فان تقي الدين الفندي واصل الى الاستانة في ابشع صورة ، يخفرها الدرك ، ويصطحبها الهوان ، و « القبرصلي باشا » اذا قال فعل !

فلما بلغت مصطفى رشيد باشا قولته هذه ، فاتح « شيخ الاسلام » بما يعرفه في « القبرصلي باشا » من صرامة ساحقة اذا صدمت رغبة العوارض ، وانه اذا احتدم غيضه غامر في القسوة ، وجازف بالارهاق ، فاقتنع « شيخ الاسلام » بالخطر الذي يتهدد تقي‌الدين ، اذا لم يتعجل في فصله عن افتاء حلب ، فتم الفصل ، و « عزل المفتي » وغادر تقي‌الدين‌الشهباء ، وجاء الاستانة وهو مكتئب حزين !

* * *

جاء تقي‌الدين الفندي الاستانة في سنة ١٢٦٨هـ=١٨٥٢م ، فحل فيها على مضض ، يكتنفه اليأس والقنوط ، وتحدق به الكآبة والاخفاق ، فسدت في وجهه ابواب الحكومة ، ومنافذ الرجاء ، وتناولته العيون بالنظر الساخط والشزر البغيض ، فان « القبرصلي باشا » رجل قوي السلطان ، بعيد الرهبة ، وله في عاصمة الملك ، صنائع ومحاسيب ، وعيون وارصاد ، فاذا بلغه ان فيها من يعطف على صريعه او يترحم عليه ، حقت عليه كلمة « القبرصلي باشا » وهي ساحقة ، لا تبقي ولا تذر !

* * *

وفي هذه الحقبة المتجهمة الكالحة التي يجتازها تقي‌الدين الفندي ، في عاصمة السلطنة ، تلبد الافق السياسي بالغيوم السوداء ، والسحب المكفهرة ، وعصف الريح الصرصر ، عاتيا عنيف العصف ، ينذر بالاهوال والصواعق ، فان روسية العدوة التاريخية لدولة « الخلافة الكبرى » ارسلت الى الاستانة بعثة « الامير منشيكوف » لتفاوض « الباب العالي » في حماية « الروم » الذين يمتون الى روسية بالمذهب الارثوذكسي ، فتعمد الامير « منشيكوف » تحدي الاداب المألوفة في مقابلة « السلطان » والخروج على المراسم « الدبلوماسية » في ذلك فما استطاع الافضاء على السلوك المقيت ، امين عالي باشا ، وزير الخارجية في وزارة الصدر الاعظم مصطفى رشيد، فشجر الخلاف ، واستمر في الشدة ، الى ان انتهى بالحرب بين الدولتين العثمانية وروسية في عام ١٢٦٩هـ=١٨٥٣م .

* * *

ان المحنة التي حلت بالوطن العثماني ، عصرت الاستانة ، وامضت الشعب ، فهبت « الرجعية » الحاقدة تثير في الدهماء اهواء النقمة ، واسباب السخط ، على الصدر الاعظم مصطفى رشيد ، فان في نزعته الى الحرية والتجديد ، ما اثار عليه الارتجاع ، وحرك الاذهان الضيقة والعقول الخامدة المتهدمة ، فهو رجل اشرب في ذهنه مبادىء « روسو » و « فولتير » ورأي « ميرابو » يقود الجماهير الى دك « الباستيل » وانقاذ الابرياء من طغيان الملكية وافتئات الرهبان ، فقد كان « سفيرا » للدولة العثمانية في باريز عام ١٨٤٨ فشارف «الثورة الفرنسية» واستخلص منها ما تحتاج اليه الدولة من نظم صالحة ، واسس ثابتة ، واستقر في نفسه « حب الحرية » فجاء يبشر به ، لولا انه تجنب الصرامة في مكافحة «الارتجاع» والقضاء على عناصر الفساد !

وهذا محمد علي باشا صهر السلطان عبدالمجيد ووزير الحربية السابق ، ومعه عصبة يؤلفها فتحي باشا صهرالسلطان محمود الثاني ، وصارم باشا الصدر الاعظم السابق ورفعة باشا الوزير المعروف بمصانعة السياسة الروسية ، ورهط كبير من علماء الدين ، و « شيوخ التكايا » الغوا العطاء الوفير والهبات الكبيرة من « السلطانة عادلة » الامراة الفاضلة ، زوج الرجل الرجعي محمد علي باشا ، فكان يستغلها في محاربة الاصلاح ، وما يرمي اليه مصطفى رشيد ، في تكوين الدولة وبعثها من العدم والفناء .

وقد استطاع « الداماد » محمد علي ان يقود الجمهور الساذج بتقدمه « طلاب العلم » و « سكان التكايا » الى مظاهرة صاخبة ، يتهمون فيها الصدر الاعظم بمفاضبة روسية ويعزون اليه اهوال الحرب ، ومصائب البلاد ، فاضطرت الوزارة الى الاستقالة ، واقر السلطان عبدالمجيد قبولها ، فعهد بالوزارة الجديدة الى صاحب الدولة محمد باشا القبرصلي ، فجاء الاستانة والف وزارته من الفئة النيرة ، وفي مقدمتها امين عالي باشا ، فاكتفت الوزارة بنفي الداماد محمد علي الى قسطموني واخرين من رهطه الى كريد ، فخمد لهب النقمة ، وسكنت زوبعة الارتجاع !

* * *

ان مجيء « القبرصلي باشا » الى رياسة الدولة،وتوسده منصب « الصدر الاعظم » خاطر مفاجيء ، لم تستعد له ظنون تقي‌الدين الفندي ، ولا ذهبت اليه ، الى ان برز في بلج الواقع، ووضح الحقيقة ، فراى الاستانة تمشي في الفخم مواكب‌الجلال، لتستقبل صاحب الدولة محمد باشا القبرصلي ، والي حلب السابق ، وسفير لندن الاسبق ، والصدر الاعظم الجديد ، فتحطمت فيه احلام الشباب ، وامال الفتوة ، وعلم انه ضائع لا محالة له من الضياع !

وهذا « شيخ الاسلام » عارف حكمة ، على جلال قدره ، ورفيع مقامه ، وسابق معرفته ، بما « لمفتي حلب » السابق ، من غزير العلم ، وكبير الفضل ، وكريم المحتد ، راح يتنكر له، ويتململ منه ويجاهره بالغضب والنقمة والاهمال !

وكذلك الذين كانوا يغبطون في « الفتى » الرائع القسمات « كبرياء العلم » و « جلال الافتاء » عادوا يسخرون منه ، في قهقهة اللئيم الشامت ، وما كان يؤمله في الرجوع الى ما كان عليه ، من ابهة هانئة ، ونعيم مطمئن ، اصبح خيبة ساحقة ، لا امل فيها ولا رجاء !

فان محمد باشا القبرصلي ، وهو اليوم يتولى الصدارة العظمى ، كان بالامس في « ولاية حلب » ينقم منه ، ولا يعطف

عليه ، ومن استحق نقمة « القبرصلي باشا » وخسر عطف « الصدر الاعظم » استحق النكال ، وخسر الرحمة،وكان نصيبه الدمار والخراب !

ولكن ... لكن ايسكن تقي‌الدين افندي الى الكآبة الكالحة ، تتملك البسمة الشائعة في ازاهير الرجاء ، فتحطمها وهي غضة مترنحة ؟ ..

ولكن ... لكن ايصطبر تقي‌الدين‌افندي على‌هذا الارهاق، وفي نفسه وثبات كلها شمم وكلها اباء وكلها طموحات ؟ ...

ولكن ... لكن اينزوي تقي‌الدين افندي عن الناس، ويقبع في داره ، في مثل هذا الخمول الواهن ، وله في الحياة اطماع وشهوات ؟ ...

وهل التبست الطرق الامنة على تقي الدين افندي فاضاع السبيل الموصول الى « القبرصلي باشا » وهو الجريء المغامر، وله العبقرية الفياضة ، بما تعجز عنه عقول الالباء وافهام النابغين ؟ .

* * *

ان قدري بك « السكرتير الخاص » لصاحب الدولة محمد باشا القبرصلي فتى مكتمل الفتوة ، مصقول الذهن ، في شيء كثير من الدهاء ، وسعة الحيلة ، وان « القبرصلي باشا » لا يعول عليه في كتم الاسرار وشؤون السكرتير الخاص فحسب، وانما يشاوره في معضلات الدولة ومشكلات الحكم ، فيستمد منه الحكمة الرائعة ، والراي الراجح ، فهو الثبت الثقة ، وهو الحكيم الوادع !

وقد عثر به « القبرصلي باشا » في مدينة « عينتاب » التابعة « لولاية حلب » موظفا صغيرا في « سجل النفوس » فلمس فيه يقظة النابغ وانتباهه الحكيم ، ثم انه ابن صديقه النبيل اسحاق باشا « متصرف قبرص » وحفيد «نقيب عينتاب» امين افندي الجناني ، فاتخذه « سكرتيرا خاصا » وجاء به الى حلب !

* * *

وترى ان قدري بك الجناني ، كان يصطحب « القبرصلي باشا » في « ولاية حلب » ويشاطره الراي ويساكنه في قصر واحد ، فهو من صاحب الدولة محمد باشا القبرصلي بمثابة الولد البار ، من الوالد المترع بالرافة والحنان !

وهو ما زال يصطحب « القبرصلي باشا » ويبادله الراي الثابت ويشاطره السكن في القصر الحافل بابهة «الصدر الاعظم» وجلال الرفعة البارزة ، بين شواهق القصور واطايب الناعمين !

اذن « فالسكرتير » قدري بك ، يعرف تقي الدين افندي معرفة اجتمعت فيها وحدة « الولاية » وآصره « الاسرتين » في حلب وعينتاب ، وخبرة « السكرتير » النابه المدرك ، وكذلك تقي‌الدين افندي ، فانه يعرف قدري بك ، ويقدر مكانته من « القبرصلي باشا »ويعلم ما له من القوة والنفوذ ، ولكنه ايستثمر هذه الوشيجة ، ويتمسك بها في الوصول الى « الصدر الاعظم » ؟ ...

ان قدري بك وان لم يبلغ الثالثة والعشرين من حياة الترف والنعيم الا انه في حنكة الشيخ الناشط الى البحث والاستقراء ، فهو يرى في مستقبل تقي‌الدين افندي ، ومضات الامل ، واشعة الرجاء ، ويكبر فيه العبقرية والنبوغ ، وكذلك تقي‌الدين افندي ، فانه يحترم في قدري بك توقد الذكاء ، والتماع الذهن ، ويجل فيه رجاحة العقل الكيس المستنير !

اذن فهما يتبادلان الاعجاب والاكبار ولكل منهما في صاحبه ، طلبة قيمة وحاجة مرجوة ، ولكن ايعمد تقي‌الدين افندي الى الاستفادة من هذا التقارب فيستحضر اسبابه ويوصل حلقاته ويحكم اواصره ؟!

* * *

ان تقي الدين افندي في حاجة عصية مستعرة ، يعوزها العضد القوي ، والنصير الباسل ، لينجو مما حل به ، وما هو صائر اليه ، اذا توالت المحن ، وظل يستكين اليها ، في وحدة اليأس ، وعزلة القنوط ، ولكنه ايعتضد بقدري بك ، ويلتمس نصرته ، فيصارحه بالحاجة العسيرة ، ويفصح له عنها ؟ ...

ان الضغط يولد الانفجار ، وان الحاجة ام الاختراع ، هكذا يقول سراة الحكمة واعيان الكلام ، ولكنه ايتعمد الانفجار، فيحرق ويحترق ، ويدع النار الساعرة تلهب الاخضر واليابس من العشب والهشيم ؟ ... ام انه يحاول « الاختراع » فيحفل منه بنباهة الذكر وذيوع الصيت ، وجلال القدر ، فيحسن الى نفسه ، ويسبغ عليها آلاء الخير ، وسوابغ النعم ؟ ... أم ماذا ؟ ...

ان تقي الدين افندي ، فتى قوي الذهن رهيف الاحساس، متقد العاطفة ، فهو يلمس في غضون الغيب ، وغوامض المستقبل، ما اعد له من مجد وارف الظلال ، طيب الثمرات ، وهو يمهد لهذا المجد ويعمل له ، فيستلهم في سكون الدعة ، وهدوء النفس ، وحي الخاطر ، وفيض الالهام ، اذن فنفسه الى « الاختراع » اميل ، وقد اخترع ، فاجاد وابدع !

الم تر كيف يركن قدري بك الى تقي الدين افندي ، في ولاء متين العرى متماسك الاطراف ، ويثق به الثقة التي لا حد لها ولا نهاية ، ثم انه يجاهر « القبرصلي باشا » بما لتقي‌الدين افندي من حق تضافرت عليه القوة ، فاذا هو هضيم مسلوب !..

وهذا تقي الدين افندي ، الم تر كيف يستثمر الظروف ، ويستغل الحوادث ، ليوجه الانظار الى ان « القبرصلي باشا » يعطف عليه ، ويرضى « لسكرتيره » الخاص ان يكون منه بمنزلة الصديق الاوفى ، والصفي الحميم ؟ ...

ثم انه يجاوز الظلمة ، وينتهي الى النور ، فيظهر في الامكنة النابهة ، ويطوف الاندية والمجالس ، وهو آمن السرب ، مطمئن الجيئة والذهوب،فان قدري بك يؤكد له بان «القبرصلي باشا » لم يضفن عليه فلتات الشباب واخطاء الفتوة لو اتسع لهما « منصب الافتاء » في بلد يقدح « التعصب » شرر الفتنة فيضرم الارواح والنفوس !

وهكذا اقتعد تقي الدين افندي القمة التي يطل منها على احلامه ، وهي تتوالب في رحاب البشر ، طروبة النفس ، متلالئة البسمات ، فقد اقتحم الجانب القاتم والموطن البغيض، في مكانة سمت به الى المكان الرفيع ، وهو موفور الكرامة ، عزيز الجانب ، جم النبل والاباء !

وفي صلة وثقى ، واصرة رحيبة استطاع « الفتى » الماحل الجديب ان «يخترع» فيبدع وذلك سر الوحي الضارب في اعماق العبقرية والنبوغ !

* * *

وفي ليلة من ليالي الاستانة ، ضاع الخيال فيها بين زرقة السماء ، وزرقة الماء ، ووومضت النجوم في الافق الناعم ، فتواثبت امواج البسفور ، تراقص الاشعة ، وتداعب الاضواء ، و « القبرصلي باشا » يطل عليها من علياء القصر ، فيهب في نفسه طغيان « الصدر الاعظم » ويرى سلطانه يغمر البسفور، وما في البسفور من فتون السحر ، ورائع الجمال ، فيسكن الى كؤوسه وهي مترعة بعصير اللذة ، فيعب منها ما حرمه على

تقي‌الدين الفندي في حلب واحله الله في الجنة المكتضة بالحور والولدان ، وما اليهما من « الطيبات » المحرمة في الدنيا على « المؤمنين » !

في هذه الليلة التي يخلو فيها « القبرصلي باشا » الى المتع الاثيمة ، والحرام البغيض ، زار تقي‌الدين الفندي صديقه قدري بك في قصر « الصدر الاعظم » فحل على الرحب والسعة ، وشكر له قدري بك هذه الزيارة ، فقد جاءت في ابرك وقت يستطيع فيه تأدية ما عليه من واجب الحب والصداقة والوفاء !

ان « السكرتير » الخاص ، لصاحب الدولة محمد باشا القبرصلي ، انما يرحب بزيارة تقي‌الدين الفندي ويغتبط بها ، ويحمد الله عليها ، في الوقت الذي يخلو فيه «القبرصلي‌باشا» الى « معصية الله » في الاستمتاع بكؤوس اللذة ، وعصير الاعناب ، ولكن تقي‌الدين الفندي لم يفطن الى ذلك ، ولا خطر له ، فتريث يترقب النتيجة ، وما يأتي به الغيب !

* * *

هذا « ثويّ » فخم الاثاث ، وثير الفراش ، تفمره الزينة الغالية ، والزخرف الثمين ، فاراتكة انيقة ممهدة ، ومتكاته ناعمة لينة ، والشموع والمصابيح ، تسطع في جوانبه ، فتبهج الابصار ، وتبعث الفرح والاعجاب ، فهو « صالون » الصدر الاعظم ، وكفى !

وهذا قدري بك ، يترك في « ثوي » القصر ضيفه الكريم ، ويدخل على القبرصلي باشا فيصدقه الخبر عن زيارة تقي‌الدين الفندي ، ويمهد له في حذق بارع « شرف الدعوة » الى مجلس الصدر الاعظم ، ليلمس مرودة العطف ، وسخاء النبل ، في‌الفيئة التي تنطلق فيها اسارير القبرصلي باشا ، ويشيع البشر وصفاء النفس ، في شيء كثير من الهيبة والوقار !

واي الرجال هذا المتكبر العنيد ؟ ..

واي الناس هذا الذي تكتنفه العظمة القهارة ، والجلال الراهب ؟!

فانه تفضل فحقق الرغبة ، ومنح الطلبة والذن بان يدخل عليه تقي الدين الفندي ، في مجلس يضم كؤوس الصدر الاعظم ، ومتع الرجل الكبير ، فدخل وهو ينوء بالنعمة وبوادر الخير ، ثم سلم فجلس ، ثم تكلم فنفس ، والقبرصلي باشا ، لا يستكثر عليه ، حدة الذهن ، وجدة النفس وقوة البيان ، وانما يستكثر عليه السكون الى قطعة من « القماش » الابيض ، هي كفن‌الادمغة والعقول ، او هي راية الاستسلام والخضوع !

* * *

واستمر السمر الطريف ، بين رنين الاقداح وبسمات البشر ، ولنوع الحديث ، وتعددت جوانبه،فتناول الخير والشر وما لهما من صلة بالنفس الانسانية وحياة المجموع ، ثم تناول البحث طبائع الاستبداد واثرها في تعطيل المواهب والملكات ، وما الى ذلك من نكبة الخلق وفاجعة العدل وسحق الادب والفضيلة والضمير ، وتقي‌الدين الفندي يفيض في البحث افصاحا وتبيانا والقبرصلي باشا ، معجب « بالفتى الموهوب » تطاوعه اللاحظة الفاحصة العميقة ويتملك الحجة والصواب ، فتمنى لو انه استعاض عن « عمامته » هذه « بطربوش » هو اقرب الى جدة الراي وحرية الفكر من « كفن الميت » وشعار الخمود ، وفي ظرف ناعم حكيم ، صارح تقي الدين الفندي بالامنية التي جاش بها خاطره ، والتمس تحقيقها !

* * *

وراى قدري بك ، ان الفرصة التي كان في انتظارها ، صنعت له في امنية القبرصلي باشا ، فابى ان تفلت ، فتضيع بين الجدل والحوار ، وهو من اسرة تعتز « بالعمائم » وتمت اليها ، فساهم في المفاضلة بين « العمامة » و « الطربوش » وجاء بالادلة على ايهما افضل ، اهذه العمامة ، وهي بيضاء ، أم ذلك « الطربوش » وهو احمر ؟!...

ان « شيخ الاسلام » و « نقيب الاشراف » و « مفتي الشرع » و « امين الفتوى » و « امير الحج » و « خطيب الجمعة » و « امام الجامع » و « خادم المسجد » و « مؤذن المنارة » و « مقيم الصلاة » و « مبلغ الجماعة » وما الى هؤلاء من حفظة « الفاتحة » و « سورة يس » والمجازين بعقد «الاذكار» وتلاوة « الاوراد » من « يا الله » الى « ياللطيف » الى « ياهو » ومن «الجلجلوتية» الى « دلائل‌الخيرات » الى « لا اله الا الله » !

وكذلك « الشيخ » و « الخليفة » و « المريد » و « المحسوب » و « راصد الافمى » وضارب « الدبوس » و « ناطح الجدار » و « مقتحم النار » و « ناقر الدف » و « صاحب الكشف » ومن له صلة « بالاقطاب » و « الابدال » و « الاوتار » و « اصحاب الحظوة » و « عصبة الاربعين » و « الخضر » عليه السلام !

اجل ... ان كلا من هؤلاء واولئك انما يلبسون «العمامة» ويحرصون عليها لانها تاج الايمان ، واكليل التقوى ، وهي نعيم التاج ونعيم الاكليل ، لولا ان امير المؤمنين ، وخليفة المسلمين ، خادم الحرمين ، وحارس القبلتين ، ظل الله في الارضين ، وسلطان السلاطين ، سلطان البحر الاسود ، والبحر الابيض ، وخاقان الروميلي والاناضول ، وبلاد العرب والكرد والروم ، السلطان الغازي ابن السلطان الغازي ، السلطان عبدالمجيد خان رضي « الطربوش » تاجا واكليلا !

وطاعة « السلطان » واجب محتوم على كل مسلم ومسلمة، فهو ظل الله الممدود ، وسيف الله المسلول ، وهو الاية والحجة والقدرة والعصمة ، فاذا رضي الطربوش لراسه الكريم ، وخلع عنه « العمامة » وجب فضل « الطربوش » واهمال « العمامة » وان حرص عليها العلماء الشيوخ ، فان السلطان مولى الكل وسيد الجميع ، وهو يستحق الطاعة ويستوجب الخضوع والامتثال .

ثم ان اللون الابيض يتساوى فيه البهق والشيب وكفن الميت ، وكلس القبر والفقاقيع الطافية على وجه الماء والزبد الذي يقذف به التيار ، فلا يمكث في الارض ، ولا يلبث فيها وانما يذهب جفاء لا نفع فيه ولا خير .

اما الذي يؤلف الحياة ، وينتظم به نبض القلب ، ويجري في العروق والاوعية والشرايين وما يتهادى على حواشي الافق ، اذا توارت الشمس ، واقبل الليل وولى النهار ، والعقيق والياقوت والمرجان وغضبة الكريم ، وحياء الابي ، وخجل النبيل ، فكل ذلك ، من اللون الاحمر و « الطربوش » كذلك !

وهكذا فاضل قدري بك بين « العمامة » « البيضاء » و « الطربوش » « الاحمر » حتى اذا دحضت « العمامة » وفاز « الطربوش » ، والقبرصلي باشا مرتاح النفس ، مبتسم الوجه ، التفت قدري بك الى صديقه تقي‌الدين الفندي ، والتمس اليه اعلان الفوز ، في « طربوش احمر » هو اقرب الى الدم الفتي ، تجري به حرارة الشباب ، فاذا «القبرصلي‌باشا» يؤيد ذلك في بسمة يشيع فيها تواضع « الصدر الاعظم » ، فاستفاث تقي‌الدين الفندي بالله من « ام الخبائث » وحبيسة

الدنان ، فهي اذا لامست العقول ، اثارت فيها وساوس الاثم ، وشرور المحرمات !

ثم راح يهمس في نفسه « بالمعوذتين » وآية « الكرسي » وهو ثمل مثقل الراس والاجفان ضعيف القوى ، متلاشي الاعصاب ، ولكن مشيئة الله تمت في « عمامته » فاطرحها غير آسف على « شعار الاسرة » يطرح فيهمل ، وغير ممتعض من « الطربوش » الاحمر يعلو به الراس الضخم ، فيفعمه الازدهار، وكذلك يزدهر الشفق ، في سدف الليل ، وحجب الظلام .

* * *

وبعد فما هذا ؟ .. اهو « الطربوش » ام هي « العمامة » ام الاثنين نبه في تقي‌الدين الفندي حظوظ الحياة ، فتراكضت اليه السعادة باسمة مستبشرة ؟!

اهو ادبار «العمامة» ام هو اقبال «الطربوش» ام ماذا ؟..

فان ما تم « لعمامة » تقي‌الدين الفندي لم يرض القبرصلي باشا فحسب ، وانما اراد له الثواب على ذلك « البالا » رتبة الباشوية ، و « متصرفية فارص » فاذا هو « صاحب السعادة » تقي‌الدين باشا !

وفي اليوم الثاني صدرت «الارادة السنية» في ذلك ، فاذا اشياخ العلم ، وعلماء الدين ، لا ينكرون على تقي‌الدين باشا « زي الفرنجة » و « طربوش الروم » يعتاض بهما عن « الجبة » و « العمامة » وانما هو يزدلفون اليه ، في احر التهاني ، وابر التحيات ، وكذلك صنائع السوء ، وعناصر الشر ، فقد اقبلوا عليه ، يلتمسون العطف ، ويسارعون بالطاعة و «مسح الجوخ» !

وهؤلاء واولئك انما يتعبدون في تقي الدين باشا « الرتبة السامية » و « المنصب الكبير » فهم خدمة القوة وعبدة النفوذ ، وهو يعلم اي « العبودية » تمتلك هؤلاء الناس ، فان تالبهم عليه في ابان المحنة ، كاد يزج به في اتون مستعر الاوار ، لولا انه استعان بحيلة الفطن ، وصبر الكريم ، الى ان ليقظ الخير في حظوظه ، فاذا هم يحبون الى « الباشوية » ويتمسحون بها ، فاسرها تقي‌الدين باشا في نفسه ، وطلع على اولئك بوجه ضاحك ، وثغر بسام ، فلولبة الكمي مجال فسيح ، تتسع له رحاب المستقبل وهو آت قريب !

* * *

وانتهى موسم التبريك ، وتقبل التهاني وتمت المراسم المالوفة في تيقظ الحظوظ ، واقبال الدنيا ، فشد تقي‌الدين باشا الرحل ، وزم الركائب ، وغادر الاستانة الى « متصرفيه فارص » فوصل اليها و « حرب القريم » متقدة مستعرة وفارص ميدان رهيب ، تتطاير فيه جماجم الابطال واشلاء المغاوير ، فمكث بين ازيز الرصاص ودوي المدافع ، الى ان استولت الجيوش الروسية على فارص فنقل منها الى «متصرفية كركوك» وجاء اليها ، فتولى العمل فيها ودل الناس على ان الفقيه الافضل « اداري » جم الحزم والكياسة والدهاء ، لولا انه « شريب » يتصيد اللذة في المباسم والمراشف والوجوه !

وقد مرت على متصرفيته في كركوك ، حقبة حفلت بالعدل وزخرت بما يطمئن اليه الشعب ، وتقضي به مصلحة الدولة ، فسحق النفوذ القائم على سذاجة الجمهور ، وغباء الدهماء ، ومنع اصحابه من التطاول على اقدار الضعاف ، بالزلفى الى قوة الحكومة ، وغطرسة الموظفين ، ففزع اولئك الى « الباب العالي » في « عرائض ومضابط » تصرخ فيها الشكوى من انغماس المتصرف ، في كؤوس الخمر ، واقداح الشراب ، فعهد الصدر الاعظم فؤاد باشا الى « المشير » نامق باشا ، وهو في طريقه الى « ولاية بغداد » ان يتثبت مما يقال في تقي‌الدين باشا ، حتى اذا صحت الرواية ، قام « الباب العالي » بما عليه ، في شارب الخمر ، ومستبيح الحرام !